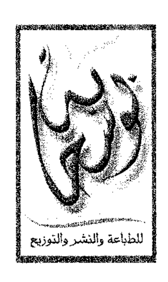

أجيال
الهزيمة
DEFEAT
كريم الشاذلي
صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

الهزيمة

الهزيمة

كريم الشاذلي
Karim Alshazley

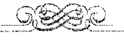




إخراج داخلى : Media Power

تصميم غلاف : عبد الرحمن مجدى

عدسة الغلاف : يوسف ناصف



رقم الإيداع 2014 / 2239

ISBN 978 - 977 - 6277 - 68



الطبعة الأولى 2014

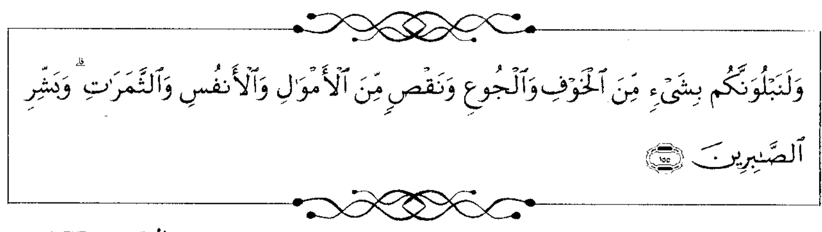
دار أجيال للنشر والتوزيع

(طبعة خاصة لمؤسسة بوسحابة بإذن خاص من دار أجيال للنشر والتوزيع)

هاتف (+2) 01224242437

الموقع الإلكترونى www.dar-ajial.com

فهرس المحتويات



وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾

سورة البقرة – 155

إهداء..

إلى..

من يؤمنون بأنفسهم.. على ما بهم من جراح..

ويسبحون ضد التيار.. رغم عنفوانه وقسوته..

وينشرون الخير.. لا يضرهم قدح القادحين..

ويثقون بأن الحق غالب.. مهما طال أمد البغي..

ثبتكم الله..

على سبيل التقديم ..!

أسوء ما يصيب المرء منّا أن ييأس.. أن ينظر وقد أعيته الحيل، وأنكرته الحياة، وأرهقه إقناع الناس، وأضناه التفكير، وكثر تردده ما بين الإحجام والإقدام..

أن يرى باطن الأرض خيرٌ من ظاهرها.. وأنه ما أتى إلا في الزمن الخطأ..

وشر ما يلاقيه هو إحساسه المرير بالهزيمة، وأن ظهره قد أعجزته الضربات فلم يعد في وسعه إلا أن ينحني، أو يقاوم حتى يلقى ربه..

وعلى مرارة ما أذاقتنا الحياة في الماضي، يأبى القدر إلا أن يثير عجبنا، ويصدمنا بما يحتار فيه اللبيب، وينتفض منه قلب الحليم المطمئن!.

لقد عشت لسنوات أكتب عن الأمل والتفاؤل وعن الصمود أمام ضربات الحياة، وها أنا أطالع في ذهول كيف يمكن أن تُسْلب الحياة منّا.. وبسهولة.

رأيت أصدقائي يتساقطون مضرجين بدمائهم وهم يحاربون من أجل الحفاظ على أحلامهم التي سُرِقت من آبائهم وأجدادهم لعقود عدة.

يقابلون بصدورهم العارية رصاصات خاطفة، خرجت من فوهة بندقية يضغط على زنادها أخ أو ابن أخ أو ابن عم..!

قبل أشهر كنت في فلسطين، في غزة تحديداً، واقفاً أرقب جمعاً من أبناء عمومتي المدافعين عن شرف عروبتنا عندما انطلقت الرصاصة الأولى..

سقط الجعبري شهيداً.. فضج الجمع بالبكاء..

ارتبك المشهد في عيني.. بيد أن الملفت للنظر هو أن الجميع تحرك وفق منظومة مدروسة سلفاً..

بدا وكأنهم على علم بأن سماء الخسة في شتاء مستمر.. ومطر لا يتوقف..

ثمانية وأربعون ساعة عشتها تحت قصف القنابل والرصاص.. ما إن وُلِد الخوف بداخلي حتى وأدته ابتسامة النصر ترتسم على وجوه الشباب، وقوة البأس التي تنضح بها حركتهم..

رأيت جثثاً.. ودماءً.. ومع ذلك كنت أسمع زغاريد الفرح، وصيحات الابتهاج..

إن الرصاصة التي صُنعت في أميركا، وجاءت إلى تل أبيب كانت هي الطريق للجنة.. هكذا كانوا يرددون وهم يحملون جثث قتلاهم بعدما ارتقت الروح إلى خالقها..

لكن الأمر بعد شهور بدا مختلفاً بالنسبة لي.. ذلك أن الرصاصة التي انطلقت كانت قد صُنعت في مصانع الخيانة، وأطلقتها أنامل الغدر، واستقرت في جسدٍ طاهر بريء..

إن ظلم ذوي القربى مرير.. صادم.. قاس..

ولذلك كانت المعركة خاسرة.. للجميع.

الشيء الذي أعادني لدنيا الواقع هو هتاف أحد الشباب وقد تعرف عليّ قائلا : أخ كريم .. هنا تُكتب البطولة.. سجل في دفترك أننا لن ننكسر.

ثم أغرق وجهي بزجاجة مياة غازية كان يحملها وهو يتمتم : أراك قد تعبت من القنابل المسيلة للدموع، هذا سيخفف من حرقتها على وجهك..

هل تعلم، لَمْ أظن أبداً أن أراك هنا، ظننت أنكم فقط تكتبون لنا ما يجب علينا فعله وأنتم مختبئون خلف مكاتبكم المكيفة.. الحمد لله أن خيب ظني فيك!.

أدار ظهره متجهاً إلى آتون القصف، فهتفت فيه قائلا : إلى أين ؟.

فرد وهو يبتسم في مرارة : سؤال في غير محله، إني ذاهب لأحمي ظهر إخواني!.



لماذا تكتب ؟!

سؤال قديم يوجه إليّ، وكانت دائماً إجابتي هي : كي أجعل وجه الحياة أكثر جمالاً.

لذا كنت متهماً على الدوام بالمثالية الزائدة والخيال الحالم، لكنني كنت أبرر

ذلك بأن الحياة بها من الأشياء الطيبة الجميلة ما يستحق أن نعمل من أجل الحفاظ عليه وحمايته، وأن مجموع الأشياء الحسنة التي نفعلها هو الذي يصنع الخير الذي يرجح كفة الصلاح في دنيا الناس في مقابل كفة الشر والسوء.

بيد أن الأمر الآن بات مختلفا.. مختلفاً جداً.

وكيف لا.. وقد صارت نفوس الناس ضيقة كالحق، وغبار الباطل يرتفع عاليا حتى ظننا أنه سيغطي عين الشمس!.

طوال حياتي وأنا لا أسمح لنفسي بأن تكتب -فقط- لأنها تريد أن تكتب، يجب أن تسوق لي ابتداء مسوغاً لهذا العمل العظيم، فعباد الله ليسوا بحاجة لمن يتاجر بهالهم وأوقاتهم.

حسناً.. إنني أكتب ـ هذه المرة بالذات ـ كي أخبر نفسي المنهكة أن الانكسار هو الرضا بالانكسار.. أن الهزيمة هي أن توقفنا الهزيمة.. أن السقوط هو أن نظل ساقطين إلى الأبد..

إن الكتابة نضال.. وأكثر المصادر إزعاجاً للظلم هو قلم حر يأبى أن ينكسر أو يلين.

الحروف ليست تسويداً لصفحات، وإنما هي تحرير للعقول، وإزعاج للقناعات الفاسدة، وتحريك مستمر لمياه الفكر الراكد كي تتجدد وتصبح أكثر نقاء.

وأسوأ خيانة لصاحب القلم أن يَقصِف قلمه أو يُحيّده بينما أصحاب الأقلام

الأخرى ينبرون لتسويق الباطل وتصديره..

إنني أكتب لأن الكتابة مقاومة.. كفاح.. مدافعة..

ولا أقصد هنا الكتابة المباشرة الواضحة فقط؛ فكل كلمة تساعد المرء منا على ألا ينكسر هي جزء أصيل من الجهاد المبرور الذي نحتاج إليه في رحلة الكفاح والمجاهدة..

وهذا الكتاب، هو جزء من نفسي وأجزاء من نفوس الآخرين!

كتبته دون جهد أو بحث كعادتي، و أفرغت فيه بعضاً من يقيني الحي بأن الهزائم التي نمر بها هي المدرسة التي يتخرج منها النبهاء والرواد، والراسخون في التبصر والمثابرة والجلد، وبأن محاولاتنا من أجل إحراز النصر هي في حد ذاتها نصر وإن لم يتحقق!.

كتبته مؤمناً أن أكثر هزائمنا خزياً، هي تلك التي ننهزم فيها دون أن نرفع سلاحاً، والتي تأتينا من داخلنا؛ فننتكس، ولا نبذل دفعاً أو مجاهدةً لضربات العدو المتتالية.

لذا فستجدني هنا ذاهباً لمعالجة هزيمتنا النفسية ضد مشاعر الإحباط والتبلد وعدم التعاطي بإيجابية مع الضربات التي نتلقاها.

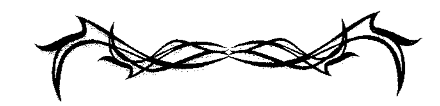
كلام قد يمله البعض ونحن نتلمس طريقاً نحو نصر كبير في معركة أكبر، لكن إيماني بأن الهزيمة النفسية التي تتسلل لتتشرب بها نفوسنا أخطر من أي

هزيمة أخرى؛ هو ما دفعني لأقف كثيراً كي أجدد القول لك- في كل صفحة تقريبا- **بألا تنكسر أو تعود أدراجك.**

هذا الكتاب فصول منْ حياة أناس مروا بهزائم ونكسات، وهو استعراض موجز لبعض المدارس النفسية في معالجة أمر الفشل والإحباط..

وهو ـ فوق ذلك ـ محاولة للتأكيد على أننا أحياء.. ما دمنا لم ننكسر بعد..

وأننا لم ننكسر بعد .. ما دمنا أحياء!.



التعريف

وما الهزيمة ؟

أقصد، ما تعريفك أنت للهزيمة؟! ..

متى يمكنك أن تغمض عينيك وتتمتم بحزن وألم قائلا: لقد حدث ما أخشاه؟



في إجابتك كثير من الفائدة، ذلك أن أسوأ هروب هو الهروب من المجهول، وأحمق ذلك الذي لا يعرف مما يخاف ويفر..

إن تعاملنا مع المصطلحات المطلقة دون وضع تفسير لها يصيبنا بشيء خطير، وهو تخبطنا في رحلة بحثنا عنها أو هروبنا منها.

ولذلك نجد كثيرين يبحثون عن «**السعادة - الحب - النجاح**» دون أن يحققوا مسعاهم، وهذا لأنهم لم يضعوا إطاراً أو تعريفاً يوضحون من خلاله ما الذي يقصدونه على وجه التحديد حينما يذكرون أي من هذه المصطلحات، ولو وضع الواحد منهم تعريفاً؛ لأمكنه أن يضع خطة عمل، أو على الأقل أدرك ما ينقصه وما لديه مما يبحث عنه.

فمما علمتنا إياه التجارب أن كثيراً من البشر يبحثون عما بين أيديهم فعلاً،



ويصرفون من حياتهم الكثير وهم يفتشون عن سعادة أو حب أو نجاح يسكن على مقربة منهم، أو يقبع في وجدانهم وقلوبهم!.

وينطبق هذا أيضاً على مفهوم الهزيمة، حيث هروبنا من الوقوع في أسرها لن يتم إلا إذا أدركنا ما هي الهزيمة؟ ، ومتى يمكننا الإقرار بأننا في هذه اللحظة قد هُزمنا وفشلنا؟!.



هل السقوط هو الفشل؟ أم أنه التراجع؟ أتراه الجمود وعدم التعاطي مع مستجدات الحدث؟، أم هو هيمنة الخصم على حريتي ومقدراتي؟

أشياء كثيرة يجب أن نقف عندها ملياً كي نفهم كيف تمضي بنا السبل، فلا وقت لدينا لمحاربة طواحين الهواء، أو الركض خلف الوهم..

وعليه أقول:

إن الهزيمة هي أن تعيش في دوامة من الأخطاء المتكررة المتشابهة، والعثرات الدائمة المستمرة..

الهزيمة أن تشعر بأن ظهرك قد قُصم، وفؤادك قد فُجع، وعقلك لم يعد قادراً على تقديم العون.

الهزيمة أن يتحول موقف مؤلم إلى وضعية مؤلمة ..

فليس من الهزيمة مثلاً أن تقع، أو تتعثر، بل أن تصبح «حالة» من الوقوع المستمر أو التعثر الدائم ..

وليس من الهزيمة عدم حصولك على شهادة دراسية، بل الهزيمة أن تظل كذلك رغم قدرتك وحاجتك إلى الحصول عليها..

الهزيمة ليست في أن تخسر تجارتك ومالك، بل أن تخسر ثانية وثالثة بنفس الطريقة ولنفس الأخطاء..

كما أنها ليست في أن تضع ثقتك في الشخص الخطأ، بل ألا تتعلم من التجربة كيف تنتقي مَنْ يستحق أن ينال ثقتك..

الهزيمة ليست في أن تكون فقيراً معدماً في وقت من الأوقات، بل أن تبقى كذلك للأبد.

والهزيمة ليست في ذنب ترتكبه، ولا معصية تألفها، بل أن يصبح التسويف ديدنك، و تصير قدرتك على العودة إلى جادة الطريق المستقيم واهية.

والهزيمة ليست في محنة تمر بها دعوتك، ولا ضيق من محاربة الناس لأفكارك، كما أنها لا تعني انقطاع السبل القريبة إلى النصر، وإنما الهزيمة أن يساور الشكُ قلبك في انتصار دعوتك، وكفرك بقيمك وقناعاتك وما تؤمن به.

ببساطة، الهزيمة أسلوب حياة .. وليست موقف يحدث لك في الحياة.

إن الأنبياء والرسل هم أكثر البشر قرباً إلى الله، وأكثر منا إدراكاً لقوانين الحياة وطبيعة الإنسان، ومع هذا لا يوجد نبي أو رسول كانت حياته خالية من التعثر والمشقة..



«غزوة أحد» كانت هزيمة.. لا، بل «مصيبة» كما سمّاها ربنا جل اسمه..

لكنها مع هذا لم تخرج عن كونها حدثا، موقفا، وليست حالة عامة أو غالبة، أو مستمرة.

عندما نُعَرِف الهزيمة على أنها «حالة» وليست «موقفا»، يمكننا التأكيد وقتئذ على أن ما نظنه فشلا وسقوطا وانهزاما ليس دائما هو نهاية المطاف، بل ربما يحمل في باطنه شيئا من الإيجابية!

ذلك أن **«مواقف الهزيمة»** يمكن أن تجعلنا أكثر قوة، وأمتن عوداً، وأصلب مراساً، وأعظم شأناً..

وأننا يمكننا استثمارها إذا تخلصنا من قناعتنا الخاطئة حول مفهوم الهزيمة وطبيعتها..

واسمح لي أن أطيب ذكر حديثي معك بتلك اللفتة النبوية الرائعة والهامة، يقول نبينا محمد ﷺ:

«كل إبن آدم خطاء... وخير الخطائين التوابون»[1]

يؤكد ﷺ أنه فيما هو أهم من الحياة التي نحياها على سطح الأرض فإن رب العزة يبشرنا بأن أخطاءنا تجاهه ـ سبحانه ـ وعثراتنا التي نقع فيها ونحن نمضي إليه يمكن تصحيحها.. بل فوق هذا فإنه يؤكد أن الزلل والخطأ صفتان ملازمتان لنا جميعاً، وأن تفاضلنا في كل من الحياة الدنيا والحياة الآخرة متوقف

1. رواه أحمد 3/ 198، والترمذى (2499)، وابن ماجه (4251) والحاكم 4/ 272 وقال: صحيح الاسنادولم يخرجاه.

على قدرتنا على التعلم من الأخطاء، والتخلي عنها، والقفز فوقها..

هذا ويضيف الكاتب والمفكر الأميركي «**جون سي ماكسويل**» ملمحاً مهما من ملامح فهمنا للهزيمة بتأكيده على أن الهزيمة لا يمكن أن نحكم عليها بموضوعية.

بمعنى أنه ليس هناك معايير موضوعية للحكم عليك بأنك قد فشلت وانهزمت، فلا كثرة النقد، ولا التوبيخ، ولا شهادة تحصيلك الدراسي المتعثرة، ولا مشاكلك مع مديرك في العمل بالفيصل، وليسوا أحكاما موضوعية بأننا فاشلون كما يظن معظمنا، ذلك أن الفشل أمر شخصي، وأنت الوحيد الذي يمكنك أن تسمي ما أنت فيه فشلاً، فردود أفعالك، وحالتك النفسية، وموقفك مما يحدث لك هو الذي يحدد: **هل ما أنت فيه فشل وهزيمة حقاً أم لا ؟**

ثم يضيف في كتابه المعنون بـ «**الفشل البناء**» قائلا :

? هل تعلم أن أصحاب المشاريع تقريباً لا ينجحون أبداً في مشروعهم الأول؟ أو الثاني؟ أو الثالث؟!.

فطبقا لدراسة قامت بها البروفيسور «**ليزا آموس**» - أستاذة الأعمال بجامعة تولين - فإن أصحاب المشاريع يفشلون من 3 : 8 مرات في المتوسط قبل أن يدركوا النجاح في أعمالهم، فهم لا ييأسون عند مجابهة الأخطاء والصعاب، لماذا؟



لأنهم لا يعتبرون النكسات فشلاً، ذلك أنهم يرون أن ثلاث خطوات للأمام وخطوتين للخلف لا تزال تساوي خطوة للأمام، لذلك فإنهم يتخطون العادي ويصبحون من المتميزين.

إن الأمر بيدك أنت.. ومتوقف على تعريفك للفشل، ورهن قدرتك على استيعاب حقيقة أن السقوط ليس مجلبة للسخرية والعار، وإنما استسلامك هو كل العار.

ذات يوم زار رجل شخصاً قد بُترت قدمه وعندما بدأ في مواساته والتخفيف عنه، فوجئ بالرجل المصاب يقول له :

❞ إن الحياة لا تنتظر مني أن أكون عداء ولا لاعب كرة، جزء مني ذهب إلى حيث سنذهب جميعاً، ولدي من الأجزاء الأخرى الهامة ما سيمكنني من العيش سعيداً مبتهجاً فاعلاً مؤثراً في الحياة. ❝

هنا معقد الفرس.. نظرتك-أنت- للأمر..

فهمك لما يحدث ووضعه في إطار عقلاني بعيد عن المشاعر السلبية التي تزحف عليك بسرعة وتحتلك.. التحرر من نظرة المجتمع من حولك، والوقوع في فخ القوالب الجاهزة لتصنيف الناس..

ليكن لك تصنيف مختلف.. وفهم مختلف.. ورؤية مختلفة..

أراك سمعت من قبل رد «**توماس إديسون**» على من ذكّروه بأنه قد فشل

أكثر من ألف مرة في صنع مصباح كهربائي، مجيباً باستخفاف : **لقد تعلمت أكثر من ألف طريقة لا يمكننا من خلالها أن نصنع مصباحا!**

بل الأخطر من ذلك هو موقفه عندما اشتعل حريق هائل في معمله، وأتى عليه حتى جعله قَاعًا صَفْصَفًا.

يحكي ابنه الأكبر «**تشارلز**» أنه عندما هرع إلى مكان الحريق ليطمئن على أبيه، وجده واقفاً ينظر بهدوء إلى تعبه الذي راح، ويعقب «**تشارلز**» قائلا: لقد تحطم قلبي من أجله، إنه يبلغ من العمر سبعة وستين عاماً ولم يعد شاباً، لكنه حين رآني ابتسم صائحا: تشارلز، أين والدتك؟.

فأجبته وأنا في حالة حزن وتعاسة : لا أعلم.

ففاجئني بقوله مازحاً : ابحث عنها وأحضرها إلى هنا، فإنها لن ترى مشهداً مثل هذا مهما طال عمرها.

وفى صباح اليوم التالي نظر «**إديسون**» إلى الحطام وقال: **إن هناك فائدة عظيمة للكوارث، إن كل أخطائنا قد دُمِرت، الحمد لله أننا يمكننا البدء من جديد!**.

لقد جرت عادة العظماء على هذا.. أن يبدأوا بعد كل انتكاسة بوعي أعمق، وأفق أكثر رحابةً واتساعاً..

أن يحصنوا نفوسهم من أن تتشرب بثقافة الهزيمة أو الإحباط،، تلك الثقافة

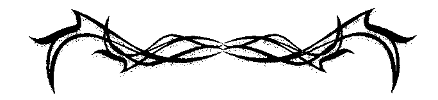


التي تعمد إلى كسر اعتزازهم بأنفسهم ومواهبهم، وإلى تحطيم كرامتهم، وتشويش قناعاتهم، واستصغار ما يمكن أن تفعله قيمهم ومواهبهم ومبادئهم في حركة الحياة.

ثقافة أنك لا تساوي شيئا.. صفرٌ على الشمال ليس له قيمة.. إحباط وتبلد وانكسار.. تفريط في قدراتك الإبداعية والفكرية..

لذا كان معقد الأمر في أي ابتلاء أو شدة أو كبوة هو ألا تفقد إيمانك بأنك ستنتصر وتقف ثانية..

بإيمان وفهم أكبر وأعظم.. وبحذر أشد..



ابق حياً!

سقطت دولة الأمويين..

قرن من الزمان تقريباً وأبناء بني أمية يتصدرون المشهد، يحكمون أكبر رقعة متماسكة على ظهر الأرض، الأسرة العريقة التي تنحدر من أشراف مكة قد أفل نجمها اليوم.. خبا وانطفأ على مهل..

تشرذمت العائلة العريقة.. رجالها جسد بلا رأس.. ونساؤها يهيمون على وجوههم في شوارع «دمشق» بلا هدى، دماؤهم النبيلة صارت رخيصة.. وكيف لا وهي تجري كالأنهار في شوارع «الشام» وطرقاتها..

مَنْ اليوم يقدر على الوقوف أمام جيش «المُسْودة»؟[1]

هكذا نطقها «أبو العباس السفاح» أول الخلفاء العباسيين، استتب له الأمر هو وجيشه بزيهم الأسود ورايتهم السوداء والتي صاروا يُعرفون بها، يكفي أن تهمس قائلا: «المسودة قادمون»؛ لينخلع القلب رعباً وهلعاً، ولما لا، وقد بدأ العهد بتصفية بني أمية جسدياً.. تلك العائلة التي لم تحافظ على مُلكها حفاظ الرجال على شرفهم؛ يجب أن تنقطع أنفاسهم تماماً، ومهما كان الثمن.

كان اللباس الأسود، والراية السوداء هما شعار بنو العباس وبها يُعرفون، حتى أطلق عليهم الناس المسودة.

نادى المنادي في البلاد : يا بني أمية، أنتم في أمان إن بايعتم خليفتنا العباسي، اخرجوا للنور، إنكم أبناء عمومتنا، ولكم السبق في إدارة هذه البلاد، ضعوا اليد في اليد، وهلموا كي نضمد الجراح!.

دخل يحيى على أخيه عبد الرحمن يخبره: أن «بني العباس» قد راجعت موقفها من قتلهم، وأنه قرر أن يلبي ويخرج لهم.

حدجه عبدالرحمن بنظرة نارية وهو يصرخ فيه : كيف لعقلك أن يصدق هذا؟! نحن أحفاد (هشام بن عبد الملك بن مروان)، أتظنهم سيوطئون لنا الأكناف، وقد قتلوا وذبحوا مَنْ هُم دون ذلك في المرتبة والنسب؟!.

إنهم يقطعون دابرنا حتى لا يبقى منا من يطالب يوماً ما بمُلك غائب، أو يحاول استرجاع شرف مسلوب، وما أظن دعواهم تلك إلا فخاً نُساق إليه، فلا تذهب.

لكن اليأس الذي تسلل لنفس يحيى كان يقطع الطريق أمام الامتثال لنصيحة أخيه، إنه لن يظل مختبئاً إلى الأبد، والمهلة التي قررها «بنو العباس» للبيعة شارفت على الانتهاء، وحينها لن يصبح هناك مخرج أو سبيل..

عقد أمره وخرج مع ثلة من قومه مستسلماً مبايعاً.. وإن هي إلا ساعة من نهار حتى كانت رأسه ورؤوس من معه مُعلقة على الأشجار!.

بلا كثير تفكير، حزم «عبد الرحمن بن معاوية بن هشام» أمره، وشد رحله هارباً .. إنه الآن على مشارف فلسطين، يقف كالصقر الجريح ينظر إلى هدف

بعيد، ويرتب في الذهن خطط الوصول إليه، إن الطريق إلى المغرب - وجهته التي قرر السفر إليها - طويل.. وطرقها مليئة بالجواسيس الذين عرفوا أوصافه، والدوريات التي تفتش القاصي والداني للوصول إليه.

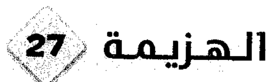
إنهم يطلبون عبدالرحمن بالاسم، فهو المتبقي الوحيد أو لنقل الأهم من سلالة بني أمية، وفضله بالإضافة إلى شجاعته وطيب ذكره كان قد وصل إلى الآذان، والخوف منه قد شحذ همم العباسيين لاجتثاث جذوره من منبتها اجتثاثا.

رأس عبدالرحمن بن معاوية تساوي مائة ألف دينار، والتستر عليه يعني القتل الفوري..

انطلق عبدالرحمن في رحلة هروبه من الشام للعراق لمصر، وليس معه سوى مولى وخادم يُدعى «بدر»، وزاد من حجم أوجاعه أن أصاب الرمد عينيه، فهلكت واحدة وكادت الأخرى تلحقها لولا لطف الله، «إن المصائب لا تأتي فرادى» كما يقولون.

مختبئاً في منزل بسيط في مصر، جلس عبدالرحمن ومولاه بدر وقد كسرت المحنة شيئاً من الكلفة التي كانت موجودة بين الأمير وخادمه، ولعل هذا ما أوعز إلى بدر ليسأل أميره : أين موضع حط الرحال، يا سيدي؟

فأجابه عبدالرحمن : إلى المغرب حيث أخوالي، نلتمس عندهم شيئاً من الراحة وشد الأزر، ثم إلى «الأندلس»، بإذن الله.



تسائل بدر: ولما الهرب إلى الأندلس، يا مولاي؟ يكفينا أن نستقر في المغرب، إنها كما تقول أكثر أمناً من غيرها.

التفت عبدالرحمن لبدر وهو ينهره قائلا: من قال أنني سأدخل الأندلس هارباً أو طريداً؟! سأدخلها أميراً، فاتحاً، ألملم شمل ما تفرق من ملكنا هناك، وأعيد ميلاد دولتنا التي سقطت في المشرق.

إن بني العباس لم يستطيعوا أن يفرضوا سيطرتهم على الأندلس حتى الآن، وهذه فرصتي كي أبدأ المقاومة من هناك!.

ساد شيء من الصمت الثقيل، بددته ارتعاشة صوت بدر المتردد وهو يقول: عذراً سيدي، ولكن...

قاطعه عبدالرحمن ضاحكاً وقد فطن إلى ما يتحرج من قوله: نعم، أنا شريد مطارد، وَصفي محفور في أذهان الوشاة وعسكر بني العباس، أعلم أن رأسي للبعض حلم يقظة ومنام، لكنني شديد الثقة بنفسي وبالله، ولا أظن أن نجاتي، حتى وصولي لهذا الموضع، إلا لتدبير عظيم يدبره لي الله، الشدائد يا بدر، هي التي تنضج الرجال، كالنار تصنع من قطعة الحديد سيفاً بتاراً.. وأنا لها، إن شاء الله.

شجعت ضحكة عبدالرحمن بدراً لأن يسأل: خلافة الأندلس! أنت لها كفء، يا سيدي، ولكن.. ما الخطة الآن؟.

فأجابه عبدالرحمن باقتضاب وهو ينهي الحديث: أن نظل أحياء!.

خير السعادة ما حماها العاقلُ

ستة أعوام، هي عمر رحلة الهروب ..

لم يفت في عضد الفتى الأموي شيء.. كانت الهمة مَركبه.. والعزم سيفه.. والإيمان قائده..

ستة أعوام حتى عبر إلى الأندلس، لا ليستريح، وإنما ليبدأ كفاحاً جديداً من أجل توحيد الدويلات المتناحرة، والإمارات المشرذمة ..

تحالفات، وحروب، ومفاوضات، وجهد كبير، حتى أتم الله له الأمر..

وملك عبدالرحمن بن معاوية الأندلس، وقتها سماه خادمه بدر بـ «عبدالرحمن الداخل»..

دخل الأندلس وحده فاتحاً.. بعقله قبل سيفه.. وبحزمه وتخطيطه وحسن تدبيره..

كان واثقاً من نفسه ثقةً لم ينل منها طول الطريق.. ولا وعورته.

الهدف كان واضحاً في ذهنه وأمام عينه..

لذا كان حازماً في الرد على أحد زعماء القبائل الذين ساعدوه في مشوار

امتلاكه للأندلس وهو شيخ اليمنيين «أبو الصباح اليحصبي» حينما قال له هازئاً : ما ملكت الأندلس إلا بنا أولاً، ولسعدك ثانياً.. سعدك الذي جعلك من نسل أموي.. سعدٌ لم تتعب في تحصيله أو تبذل فيه جهداً.

حينها انتفض عبدالرحمن وهو يرد عليه بأبيات شعر صارت مضرباً للمثل في الحزم، إذ قال :

سعدي وحزمي والمهند والقنا ومقادربلغت وحال حائلُ
إن الملوك مع الزمان كواكبٌ نجم يطالعنا ونجم آفلُ
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا أيروم تدبيرالبرية غافلُ؟
ويقول قوم سعده لاعقله خيرالسعادة ماحماها العاقلُ

نعم، السعد موجود، لكن الحزم كان الفيصل.. وتدبير العقل هو متكأ النصر، لا الحظوظ.

وهذا ما أدركه العباسيون.. أو لنقل أحد أهم خلفاء بني العباس «أبو جعفر المنصور»، ذلك أنه - وفي خضم التخطيط للقضاء على مُلك عبدالرحمن الداخل بتأليب الأندلس عليه، وإمداد خصومه بالسَند والمدد كي يضعفوا شوكته - قرر أبو جعفر المنصور فجاة إيقاف الحروب، وكانت المفاجأة التي أدهشت حاشيته أنه سألهم ذات يوم : اخبروني.. من منكم يعرف «صقر قريش»؟.

يقصد من منكم يخبرني بمن يستحق أن ينال لقب صقر قريش.

فقالوا له : أنت الكفء له يا سيدي.

فقال لهم مُنكراً : لم تقولوا شيئاً..

فتبارى القوم في ذكر أسماء بني العباس.. وذكر بعضهم عبدالملك بن مروان، ومعاوية بن أبي سفيان.

وهو ينظر لهم في هدوء حتى إذا ما انتهوا قال لهم : صقر قريش هو عبدالرحمن بن معاوية.

نظر القوم بعضهم لبعض في دهشة.. «الخليفة يقول هذا على عدو له.. وأي عدو.. إنه عدو الخلافة الأول والأخطر».

فأكمل أبو جعفر، قائلا ومفسراً :

«عبدالرحمن بن معاوية الذي تخلّص بكيده عن سنن الأسنة، وظُبات السيوف.

يعبر القفر، ويركب البحر، حتى دخل بلدًا أعجمياً، فمصّر الأمصار، وجنّد الأجناد، وأقام ملكًا بعد انقطاعه بحسن تدبيره، وشدة عزمه.

إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذللا له صعبه.

وعبد الملك ببيعة تقدمت له، وأمير المؤمنين بطلب عترته، واجتماع شيعته.

وعبدالرحمن منفردًا بنفسه، مؤيدٌ برأيه، مستصحبًا عزمه.. الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر.. لا تطلبوه بعد اليوم!».

حتى ألد أعداء هذا الرجل أعجبوا به..

إنه إعجاب اضطراري، إن صح القول.. إعجاب حمله عليه الإنجاز الذي تحقق من بعد محنة وانكسار، وهزيمة..

إنجاز إن أهمله الأعداء أو سفهوه؛ فسيصبحون أضحوكة الدنيا، شأنهم كشأن من أراد أن يمنع نور الشمس بطرف إبهامه..

وهكذا النجاح، إذ يخرج من رحم الفشل.. يبهر الدنيا.



لحظة يأس

وأطوي صفحة الماضي لأقترب منك.. من حياتك..

لأبحث عن تلك اللحظة..!

التي يضيق فيها الصدر.. وتصبح الأنفاس قصيرة.. وتشعر بإفلاس نفسي غير محدود..

أو اللحظة التي قد تطول أو تقصر لكن الحياة تبدو عندها وكأنها منزوعة المتعة، باهتة الألوان، مريرة المذاق.

جميع الأنشطة التي تفعلها لتغيير حالتك المزاجية، لا تجدي.. تشعر بأن الأزمة هذه المرة تأتي من داخلك.. من روحك.. من قلبك.

أو ربما..

لحظة أن تشعر بالحسرة وأنت تنظر إلى سنين عمرك الماضية وقد التهمتها شواغل الحياة، فكأنك قد صحوت وقد بدأ الشعر الأبيض يغزو مفرقيك.. الثلاثون، ذلك الرقم الكبير الذي يعني أنك قد ودعت - قولاً وفعلاً - مرحلة المرح، ودخلت في طور المسؤولية، وأنك مع هذا لا زلت متعثراً وكأنك على أعتاب العشرين.

وقد تكون..

لحظة يأسك.. خسائرك المادية، وضعك الوظيفي، الالتزامات التي تخنقك، لقد أحنتك المحنة حتى وكأن قلبك المرح قد شاخ من كثرة الأزمات ويحتاج إلى.. عكاز.

أو يبدو أن لحظة المشاعر هي السبب!..

الحب.. أو الحبيب!

ذلك الذي أسكناه سويداء القلب، وجعلنا له في الروح متكأً ومجلسا.. هل خان العهد وتنكر لك؟!.

حياتك.. بيتك.. زواجك.. أبناؤك..

أم أن البرود هو الذي أقبل ينهش بأسنانه الحادة جسور المودة التي كانت يوما ما.. متينة.

أم شيء أكبر من كل هذا.. محنة فكرتك، ابتلاء دعوتك، محاصرة أمانيك الكبرى وأهدافك السامية العظيمة..؟

على كل.. إنها لحظة الهزيمة!.

التي تشعر عندها بأنك قد تلقيت ركلة مؤلمة، بأنك تقف في المكان الخاطئ، وتعيش في الوقت الخاطئ، وتقوم بالعمل الخاطئ، كي تصل بعد كل هذا للوجهة الخاطئة..

آه يا صاحبي، كلنا والله هذا الرجل!!.

نعم، كلنا نصاب بتلك الحالات بين وقت وآخر، الإحباطات والهزائم تنتابنا طول الطريق وخلال الرحلة.

أحمق ذلك الذي يظن بأن النجاح يمكن أن يلاصق شخصاً على طول الخط، وأكثر حماقة، من يظن بأن الفشل يمكن أن يكون مرافقا له أبد الدهر..

لكن السؤال الذي أطرحه عليك، وآمل أن تتدبر فيه :

هل القضية في لحظة الهزيمة، في قسوة وقعها، وأثرها، ووجعها؟.

في كل الإرهاصات القاتمة المتشائمة التي تصاحبها وتأكل بنهم في أرواحنا؟..

و الحقيقة هي : لا..

فالقضية في عمر الهزيمة.. الأزمة في طول أمد الانكسار.. في الفترة التي يجتاحنا فيها شعور الفشل والإحباط..

ما الذي فعله عبدالرحمن الداخل في القصة السابقة؟.

برغم بعد المسافة بين واقعه وحلمه، إلا أنه استمسك بأهداب طموحه حتى اكتمل الأمل وطلعت شمس سعده..

نسيت إخبارك - وأنا أسوق لك قصته - أن أخاه الوليد (13 عام) قد قُتل

أمام عينيه من العباسيين، وأنه قد ترك أخته وولده الصغير خلفه، كما أنني لم أستطرد لأخبرك ببعض التفاصيل الصغيرة، مثل: أنه ارتدى ملابس النساء أكثر من مرة للهرب من أعدائه، و أنه قد نام ليالي في العراء بين أرجل الخيول.. و أنه اصطدم بالخوارج في القيروان فحاولوا قتله؛ نظراً لكونه من سلالة بني أمية.

كان وضعه بالغ الشفقة ولكن.. من الخارج فقط.

أما من داخله فقد كان رغم حزنه، وألمه، ووجعه، وخوفه، وريبته المستمرة، وهزائمه المبكرة - أقول : كان مع كل هذا - متفائلا!.

بدا هذا واقعاً وهو يقسم خطته الكبيرة «إمارة الأندلس» لخطط قصيرة «أن يبقى حياً».

كان هدفه الآني الذي عمل على تحقيقه - ولمدة ست سنوات متتالية - هو.. أن يبقى حياً.

فقط.. أن يبقى حياً يتنفس..!

كان يمكنه النظر لحلمه البعيد، ثم يقارنه بوضعه الراهن؛ فيصيبه الإحباط ويرتضي لنفسه حلاً بسيطاً يضمن له الحد الأدني من الحياة.. لكنه لم يفعل.

لماذا .. ؟

لماذا قاوم عبدالرحمن الداخل كل تلك الأزمات والإحباطات..؟

والإجابة : لأنه يعرف أن من يضحك أخيراً يضحك كثيرا..

وبملء فيه!.

أن العبرة بالخواتيم، والأمور تقاس بمجملها لا بأجزائها، وأن الهزيمة الحقة هي الرضى بالهزيمة.

أدرك عبدالرحمن مبكراً أن العيش وفق استراتيجية «تجنب الصراع»؛ تورث عادة الخمول والترهل، ومن ثم تسلمه إلى نهاية واحدة محتومة وهي الهزيمة الدائمة..

أدرك أن ليس ذنبه وجود أعداء شرسين في الحياة، لذلك لم يشعر بالذنب ولم يترك نفسه لعملية جلد ذات مؤلمة، لقد حول مشاعر الإحباط والحزن والألم - وكانت لديه يقينا - إلى حالة من التحدي والجلد والمثابرة، وكان أن جابه أعداءه بالحيلة وحسن التخطيط والذكاء.

هذه قصة عبدالرحمن الداخل، والتي قد ينظر لها البعض في ملل على أنها لا تعدو أن تكون أكثر من قصة تاريخية مسلية..!

بل قد يراني البعض - أنا أيضاً - من جملة الكُتاب الذين يعمدون إلى شحذ الهمة بقصص وحكايات من باب التندر، أو حتى من باب السلوى بأمجاد ماضٍ تليد..

لا يا صاحبي..



إن الفتى الأموي الذي خاض تجربته القاسية وهو دون الثامنة عشر من عمره؛ علمني الكثير..

تعلمت منه ـ وأنا في مثل عمره ـ كيف أضمد الجرح، دون أن أنكسر أو أجزع..

وبالرغم من شتان الفارق بيني وبينه، وبين أزمتي وأزمته، وبين زماني وزمانه، إلا أن صموده العظيم كان لي عوناً وسنداً وعِبرة..

ودعني أفتح صندوق ذكرياتي.. لأذكر لك قصة فشلي الأول..!.

لعل بها ما قد تتقوى به أنت أيضا..!



الصندوق الأسود

عبثاً أحاول جاهداً ألا أتحدث عن نفسي حينما أكتب..!

هل لأنني زاهد في حياتي وأرى أن ليس بها ما يُذكر؟!.

على العكس.. فأنا أؤمن بأن كل واحد منا لديه ما يرويه، وأن المرء مهما كان بسيطا إلا أن الحياة لم ولن تعفه من تلقي دروسها، وبالتالي لديه تجربة أو أكثر يمكن أن يفيدنا بها.. وإنما خوفي من البوح هو أن ألجأ للكذب!.

إن الكذب في عقيدتي ليس فقط أن نخالف الحقيقة وإنما يشمل كذلك ذِكر نصف الحقيقة.

وضع العدسة أمام نقطة بعينها لتكبر، وإبعادها عن نقاط أخرى فتبدو غير موجودة..

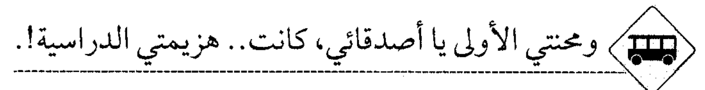
ولذا فإن أقذر الكذب هو ذلك الذي يسكن بين قوسين من الحقيقة، لكن حسبي حين أبوح أني أنتوي بإخلاص وصدق نقل شيء من تجربة حارة إلى صديق غال، علها تختصر عليه شيئا من مشقة الطريق..

وعليه، فلتسمحوا لي بأن أفتح صندوقي الأسود..!

ذاك الذي يحوي أرشيف هزائمي وعثراتي، تلك الهزائم والعثرات التي أحب دائماً التخفيف من ذكراها ووصفها بأنها تجارب وخبرات!.

المزية التي يمكن أن تستفيدها من فتح هذا الصندوق هو أن محتوياته من هزائم و عثرات مرتبة، بالرغم من حالة التوتر والفوضى التي كانت حاضرة آنذاك.

إنه أرشيف من الهزائم.. وعمر من المحن..!


ومحنتي الأولى يا أصدقائي، كانت.. هزيمتي الدراسية!.

من اقترب مني يعرف أنني لم أكن ذا حظ وافر من التعليم الجيد.. خصوصاً، في صغري، وأن عثراتي الدراسية كانت عبئاً على من حولي..

ولهذا الأمر بعض التفصيل..

ففي بيت متوسط الحال كانت نشأتي.. أسرة بسيطة تتكون من زوجين وأربعة أبناء، حياة عادية تشبه حياة آلاف الأسر، كان يمكن أن تُسقى من نهر السعادة لولا الظروف المادية!.

الضربات المتتالية التي كانت تصيب الأب الذي يعمل مقاولاً، أتت على أمن وهناء الأسرة، ليال من الحزن والأرق والتوتر كانت تخيم علينا، والوالدان يحسبان ما في اليد، ويرسمان الخطط كي يقيا الأبناء من ضربات الحياة.. ولكن هيهات..

فكل الحيل لم تفلح.. بدا وكأن بحر الحياة قد ألِف العبث بسفينتنا، ولم يستطع مجداف الأب ضبط توازنه فكاد يغرق، لولا أن قررت الأم القيام بدور أكبر مما كانت ترجوه..

عقد عمل في إحدى الدول العربية، بعد قليل تردد، حزمت أمرها، أذكرها وهي تدعوا الله أن يكون في ساريها الأمان بعدما انكسر مجداف زوجها على صخور واقعنا المرير.

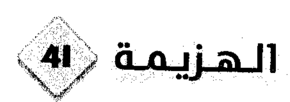
صغاراً كنا.. لكن المحنة لا تستثني أفئدة الصغار من الكي، وكيف يحدث وكل صيحة تهب على الأسرة كان صداها يصلنا ونحن في فراشِنا نبحث عن انغلاقة جفن تسرقنا من خطر نشعر به يقترب منا أكثر.. فأكثر.

قاتل الله الفقر!..

أربعة أبناء تسافر أمهم خارج الوطن لتكدح، بينما الأب يضرب في أرض الله كي يوفر متطلبات المعيشة الضرورية، والصغار في كنف جدة عجوز تبذل جل جهدها في الحفاظ عليهم..

كنت وقتها قد ودعت المرحلة الابتدائية لأخطو نحو عالم جديد نسبيا، يحتاج لمتابعة واهتمام أكبر، وهو مالم يكن متوفراً إلى حد كبير.

في ذلك الوقت تعرفت على الكِتاب، على القصص والروايات وعالم الخيال البديع الرائع.



حتى هنا قد يبدو الأمر عادياً، لكن دعوني أعترف ابتداء أن القراءة كانت عندي بجوار المتعة تمثل حالة هروب واختباء من واقعي الذي لم أكن راضياً عنه وقتذاك، واقع كنت أشعر حياله بالبغض، والخوف، والانكسار.

كل الأشياء كانت ثقيلة ومرهقة ومؤلمة، لعل بعضكم يعرف ما الذي تُحدثه الأزمات المالية في الأسر، خصوصاً إذا كانت تلك الأزمات متتالية، ومدى انعكاس هذا على نفسية وطريقة تعامل الأزواج مع بعضهم البعض، ومع أبنائهم..

كان الوضع مثالياً لينفرد بي أصدقاء السوء، وأتعلم على مهل فنون الهروب من المدرسة وقضاء اليوم كاملاً في اللعب واللهو.

كما كان الوضع مهيئاً كذلك ليستقبل جسدي الركل والصفع والتأديب على جرائمي المتكررة..

لم تكن في الأمر ثمة شطحات مبالغا فيها، كلها كانت «شقاوة عيال» يمكن علاجها بسهولة لو توفّر الدافع والجهد التربوي، لكنه - للأسف - كان غائباً.

بدأت مع التضييق الأسري أهتم بالقراءة وأغوص في عوالم الأدب، يمكنني تذكر كيف قرأت في تلك السنوات كل كتب د.مصطفى محمود، ويوسف جوهر، وإحسان عبدالقدوس، والمنفلوطي.

لا زلت أذكر هذا جيداً...



وبدأ الانهيار الدراسي، أعود شبه يومياً إلى بيتي بشكاوى من المدرسين الذين قد أمسكوا بي وأنا أخفي رواية ما في كتاب المدرسة ولا ألقي بالا لما يُقال ويُدرس..

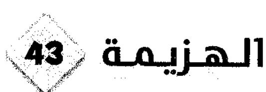
كانت الصفعات تتناسب طردياً مع الشكاوى، والتوبيخ مع عدد القصص المضبوطة في مكتبي، بينما كانت العلاقة عكسية بين درجات التحصيل والركلات التي تنهال على مؤخرتي!.

كانت أسرتي تتعامل مع القصص والروايات تعامل النازيين مع اليهود، المحرقة عندهم كانت هي الحل، وهو ما قوبل بعناد شديد مني، ومما دفعني لمواصلة ما أقوم به رقابة الأب المتقطعة الضعيفة، وسفرالأم الدائم.

ثلاث سنوات غابت فيهم الأم كانوا كافين جداً لأفشل في دراستي، وأسقط سقوطاً مروعاً ليلقي بي مجموعي الدراسي إلى مدرسة صناعية، لتضيع ثلاث سنوات أخرى في دراسة مواد ليس لها قيمة، لأواجه الحياة بعد انتهاء رحلتي الدراسية الفاشلة وأنا في السادسة عشر من عمري وقد حملت في يدي ورقة اسمها «دبلوم».

لقد تحررت..!

هكذا قلت لنفسي وانا أحزم حقيبة سفري تاركاً قريتي في دلتا مصر؛ لأتوجه إلى القاهرة، حقيبة نصفها ملابس والنصف الآخر يحتوي على كتب وقصص وروايات..



أذكر أنه كان من بين الكتب «حديث الأربعاء» للدكتور طه حسين، و«العبرات» للمنفلوطي، و«وحي القلم» للرافعي، و«سارة» للعقاد، لقد خرجت من قمقم القيود المنزلية لأبدأ حياة الرجال.. وقد كان..

عامل في محطة وقود، بائع في محل تجاري، عامل نظافة في محل ملابس، مشرف بناء في موقع هندسي.. هذا غير بعض المهن الحرة البسيطة..

في خلال هذه الفترة، بدأت في مراجعة حياتي، وقررت تقديم أوراقي في المدرسة الثانوية مرة أخرى وهو ما قد حدث فعلاً، أخذت في جبر كسر أوضاعي التعليمية، حتى حدث لي شيء مفاجئ..

فرصة للسفر إلى دولة خليجية، وهم البداية الجديدة، أسطورة الثراء السريع، فكرة أن المال قادر على سد كل الثغرات الأخرى.

حزمت أمتعتي وسافرت لأفاجأ بأنني لم أكن أكثر من ضحية لعملية نصب، وأن السفر لم يكن حلاً، بل كان أزمة إضافية.. وقاسية.

سفري لم يكن أمراً يسيراً، فلقد احتجت لأن أقترض من أجله مبلغاً مالياً كبيراً، وهو ما جعل كل حساباتي مرتبكة حال وجودي في الخليج، حيث أن العودة لبلدي بخفي حنين وبظهر مثقل بالديون ووجدان مشبع بالفشل والهزيمة، كان أمرا مستحيلاً.. لذا قبلت مرغماً أخطر تحدي في حياتي..

وكانت تلك المحنة هي بداية وقوفي الحقيقي، ذلك أن الحروب التي يخوضها المرء دون أن يكون لديه خط رجعة تشحذ الهمة، وتستفز العقل، وتكشف

مساحات القوة التي لم تُكتشف أو تختبر من قبل هي حروب قاسية حقًا.

ما يقارب العام، وأنا في محنتي، أعمل وأكدح كعبد آبق أتعب مولاه فأرهقه بكثير عمل وشغل، وفي ختام العام كانت الانفراجه..

ستة أعوام، هي الفترة التي قضيتها مغترباً، ضمدت خلالها أتراح قلبي، عدت وقد تخطيت عامي الثاني في كلية الإعلام التي انتسبت إليها في القاهرة، وكنت أعود كل حين لامتحاناتها خلال عملي، قرأت كثيراً.

بدأ اهتمامي بمجال التنمية والتطوير الذاتي، تعرفت على العلماء والمفكرين... بشكل دقيق ومختصر وجدت نفسي.

ولعلي بسائل يسألني عما حدث وقلب موازين الأمور، والحقيقة أنني لم أُبد عبقرية ولا نبوغاً فريداً، الأمر ببساطة هو أنني صبرت وتحملت، ما عدا ذلك فهو فضل الله وجميل إحسانه وكرمه..

هناك الآلاف بل الملايين الذين تخطوا أزمات تفوق ما تخطيته، لكنهم في طي الكتمان، يجرعون كؤوس نصرهم بتلذذ..

يمكنني أن أتفاخر عليك بأن تحملي وعدم انكساري هو سبب انتصاري في تلك المحنة، والحقيقة أنه كذلك، ولكن ليس لفضل مني، وإنما لانغلاق كل الطرق، وانسداد كافة السبل الأخرى، التي ربما لو توفرت لكنت خسرت الكثير..



وبطبيعة الحال لا زالت هناك أخطاء أرتكبها، ومعارك أنكسر فيها، وأزمات تطاردني، لكنني - بفضل الله وكرمه - تخطيت منها الكثير ولا زلت.. والسبب أنني عرفت السر..

> والسر أن للنجاح ألف سبيل وسبيل، وطرقه متشعبة ومتعددة، وأثواب النصر كثيرة وتناسب الجميع، ووفق كل الأهواء..
>
> بينما الفشل له طريق واحد، يبدأ بأن تنكسر عندما تفشل، وتقعد في منتصف الطريق باكياً حزيناً تلعن الحياة والظروف والناس.

في بعض محاضراتي أعمد إلى التعثر وأنا أصعد إلى خشبة المسرح بشكل ملحوظ، ثم أسأل الحضور، ترى لو تعثرنا في الحياة كما تعثرت الآن ما هي الخيارات المطروحة أمامنا؟.

وأجيب أن هناك ثلاثة خيارات محدودة:

الأول، أن أنطلق غير عابئ بالعثرة، ودون أن ألتفت إليها، وهذا خطأ كبير، حيث أن السقوط أو التعثر أو الفشل إن لم نتوقف عنده لبرهة كي نفهم أسبابه ودوافعه، ففي الغالب سنقع فيه مجدداً.

بينما الخيار الثاني، أن نتوقف عندما نتعثر أو نسقط لنبكي ونندب وننعي غدر الزمان، وتربص الحياة، وخيانة الدهر، وسوء التقدير!.

نجلس لتضييع أعمارنا أمام تجاربنا الفاشلة، ننظر لها دون أن نحرك ساكناً أو نقاوم، أو نمانع..

بينما الخيار الثالث، هو أن نتعلم الدرس، ونقطف الثمرة، ثم ننطلق من جديد..

أعلم أن تجاربنا الفاشلة تؤلمنا، وترهقنا، وربما تصبغ الدنيا بلون أسود قاتم..



لكن الحياة والناموس الكوني علمنا أن النصر في الحياة يناله الشخص الذي يتحمل الكم الأكبر من ضرباتها.. دون أن ينكسر..





بحثاً عن معنى!

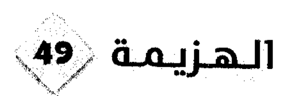
ما مر بنا كان تجربة من حياة شاب تخطى هزيمة ما في حياته، نعم، كان القدر يخبئ له هزائم أخرى أقوى وأشد، ولعلي بقائل: لكنها قصة مكررة، لم يفعل فيها فتانا المستحيل!.

وهي فعلاً كذلك، ولكن كل صاحب أزمة يرى في أزمته كل ضيق الدنيا حتى قال بعضهم: «إن من لديه «ضرس» يؤلمه، يظن كل من لا يشتكي من أسنانه سعيداً!».

وعلى كل، دعني أصحبك الآن لنطوف حول قصة حياة قاسية مؤلمة، هُزم صاحبها بشكل مفجع مهين؛ لنرى كيف استطاع أن يغير حياة الملايين من خلال فهمه العميق لما حدث له..

إنه «فيكتور فرانكل».. الشاب النمساوي الذي يعمل في مجال علم النفس والذي بدأ نجمه في البزوغ إبان عصر مدرستي علم النفس العملاقتين آنذاك: «مدرسة فرويد» و«مدرسة ألفريد إدلر».

كان نابهاً؛ مما جعل أستاذي علم النفس الشهيرين «فرويد وإدلر» يقربانه ويزكيان مقالاته، وكان لذلك بالغ الأثر في ارتقائه وبداية شهرته.



في عام 1942، وأثناء الزحف النازي على أوروبا، كان فرانكل - يهودي الديانة - أحد ضحايا طموح هتلر، حيث تم قتل أسرته بالكامل، ولم ينج من عائلته سواه وأخته الصغيرة، التي هربت بإعجوبة إلى أستراليا.

بين عشية وضحاها، أصبح فرانكل «مجرد رقم» ينادى عليه بـ 117، عارياً حافياً، شريداً، لا تستره سوى خرقة بالية قذرة، يخفي تحتها كسرة خبز قديمة يداعبها بين وقت وآخر وكأنها كنز نادر، يُطمئن بملمسها نفسه بأن هناك ما يتبلغ به في رحلة العذاب!.

لا أمل يبدو في النجاة.. ويكون السؤال..

ما الذي يمكن أن يفعله شخص عارٍ، منهزم، ليس لديه ما يخسره؟!.

ما الذي يمكن أن يفعله سوى أن ينتظر قدوم ملك الموت.. أو يذهب هو إليه؟!.

مع بزوغ صباح كل يوم، كان كل سجين يلتفت إلى جاره يتحسسه، الموت قريب جداً، وحفلات الإعدام لا تنتهي، لذا كانت المقاومة منعدمة، والانكسار ضاربا بجذوره في وجدان الجميع..

كان من المشاهد المألوفة للسجناء أن يروا زميلا لهم وهو ينطلق كالسهم ليرمي بجسمه على الأسلاك المُكهربة التي تحيط بالمعسكر، يحترق الجسد الهزيل تماماً، إن مقابلة الموت أهون من انتظار وقع أقدامه المخيفة..

ثقيلة الأيام.. ثقيلة الخواطر.. ثقيلة الذكريات.. ثقيلة الحياة..

ووسط هذا الجحيم، توصل فرانكل إلى نظريته الخاصة والتي صارت مدرسة قائمة بذاتها في علم النفس، لقد وجد سراً هاماً.. وخطيراً.

تأمل فرانكل في مقاومة بعض المساجين للموت، وانهزام البعض الآخر..

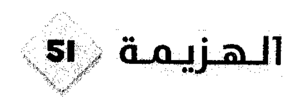
وجد حينها أن هناك صنفاً من البشر تكون مقاومته للهزيمة والذل والانكسار أكبر من غيره وأصلب، يتحمل صابراً ما يتعرض له، ويتخطى بعزمٍ الكبوات والعثرات مهما كانت مؤلمة ومهينة وخطيرة.

هؤلاء هم الذين يملكون شيئاً ما يستحق أن يقاوموا من أجله!.

يملكون شيئاً يجعل لحياتهم معنى وقيمة..

كان السجناء الذين يحتفظون في قلوبهم بأمل ما، هم الذين ترتفع مناعتهم ويصبحون أكثر قدرة على التحمل حتى وإن هزلت أجسادهم، بينما يتساقط ويقع من أغلق دون قلبه باب المعنى، ولم يجد في صندوق حياته شيئا ذي قيمة يستحق أن ينتظر الغد من أجله، حتى وإن كان بصحة أفضل، وجسد أكثر قدرة على الجَلد والتحمل!.

إن الأفكار لا تموت.. والأحلام لا تُسجن.. والأمل لا يخبو.. والقيم لا ينالها الهوان مهما فعل الجلاد، طالما بقى أصحابها ينفثون فيها من أرواحهم فيحيونها وتحييهم.



الحل إذن كي نتغلب على ما نحن فيه هو أن نتمسك بأمل، نتوحد مع فكرة مشرقة، نستمد منها الطاقة والروح والقوة.. هكذا قال لنفسه وهو يبلور فكرته ونظريته.

وبدأ فرانكل يساعد السجناء ـ من خلال هذه النظرية ـ على تخطي المصيبة التي يعيشونها، كان يسأل السجين عن حياته إلى أن يقف على شيء ما..

ابن، زوجة، كتاب يريد تأليفه، فكرة يود تطبيقها، مشاعر يتمنى إيصالها لشخص ما، طموح لم يتسنى له تحقيقه من قبل.. وعندما يجد هذا الشيء، يبدأ في إظهاره، ليجعل منه قيمة، تبرق أمام نظر السجين لتمده بالقوة والإرادة..

ويذكر أنه أنقذ شخصين فعلاً كانا على حافة الانهيار، وذلك حين تحدث معهما، وجد لدى الأول ابنا وحيدا بحاجة إلى من يرعاه، فأشعل في قلبه معنى مهماً لحياته يتمثل فى مساعدته لولده كي يعيش سعيداً، ويدعمه في لحظات حياته المقبلة.

أما الشخص الثاني، فكان لديه موسوعة علمية يعمل عليها، فجعل من هذا العمل غاية عظيمة، وقيمة وجدانية يجب أن يعيش من أجل إتمامها وإفادة البشرية، وتحقيق هدف سامٍ في الحياة.

حقق فرانكل شهرة لا بأس بها في المعتقل؛ دفعت الحراس أيضاً لأن يستشيروه في مشاكلهم الشخصية، اكتشف حينها أن دائرة المأساة أوسع مما يظن، وأن الكَبد والمشقة والألم ضاربون بأذرعهم في أفئدة الجميع..



لخص فرانكل نظريته وقتها في أنه لكي تعيش عليك أن تعاني، وكيما تبقى عليك أن تجد معنى للمعاناة، وإذا ما استطعت أن تجد - أو تُوجِد - هدفاً لحياتك فإنه بالتالي سيكون هناك هدف للمعاناة، وبأنه مهما لاقينا من ضربات الحياة فإنها لا تخلو من سبب ومبرر قوي للصمود!.

وبطبيعة الحال فإن الرجل بعدما أُفرج عنه وخرج ليواصل حياته، تابع أبحاثه وجعل من تلك النظرية منهجاً في علاجه لمرضاه، فكان يسأل المريض الذي يطرق باب عيادته سؤالا غريبا :

«لماذا لا تنتحر وتنهي مشاكلك؟!».

ومن خلال الأسباب التي يسوقها المريض كان يستخرج .. «المعنى».

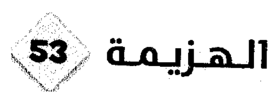
الشئ الجميل الذي يمكن أن يعيش له.. ويتحمل من أجله.

كان يؤكد لمرضاه أنه ما دام في حياتنا شيء ما يستحق أن نموت من أجله فمن باب أولى أن نعيش من أجله ونوليه رعايتنا واهتمامنا وتركيزنا، ونتحمل من أجله ما نجد ونلاقي.

ولذلك كان يُعَرف اليأس بأنه «معاناة منقوص منها المعنى».

كان فرانكل والذي يمكن أن نقول بأنه قد هُزم وتعثر ودخل المعتقل، ورأى ما تقشعر له أبدان ذوي النفوس السليمة.

أقول كان فرانكل يعيش منتصراً في حياته، والسبب : أنه وقع على سر من



أسرار التغلب على الهزيمة وهو أن يكون لك معنى في حياتك يلهمك كي تتخطى الصعب الذي أنت فيه .

كان يرى الإنسان كائناً يتخذ القرارات، التي وفقا لها تكون حياته، وعليها يتوقف موقعه من المعركة، ذلك أنه ليس فقط ما يهم هو وجود معنى لحياتك وإنما قرارك بأن يكون هذا المعنى هو محور حياتك.

كان يؤكد دائما على أن الحياة يمكن أن تأخذ منك كل شيء، تماماً كما أخذت منه عائلته وحريته ووضعته في معتقل نازي يعاني فيه الهوان.

لكن هناك شيئا هاما لا تستطيع أبداً أن تأخذه منك الحياة مهما حاولت كسرك وهزيمتك ألا وهو «حرية الإنسان في اختيار موقف محدد في ظرف معين»، حيث تبقى استجابتك هي «آخر وأهم الحريات الإنسانية»، وذلك لأنها البداية الحقيقة لتغلبك على الهزيمة والانكسار.

عاش فرانكل يساعد الملايين على الخروج من نفق الهزيمة، ولم ينس أن يكتب تجربته القاسية وما استفاده منها في كتيب بعنوان «الإنسان يبحث عن معنى Man's Search For Meaning» ليوزعه في نطاق محدود على أصدقائه ومرضاه، لكن يشاء القدر أن يحتفي بهذا الرجل ويعطيه ما يستحقه من التقدير والشهرة، لينتشر الكتاب وتباع منه ملايين النسخ ويترجم لأكثر من ثلاثين لغة، ويستفيد منه قطاع عريض من البشرية.

يُعد «ستفن كوفي» أحد أهم أساتذة التغيير - الشخصي والمؤسسي - في عصرنا الحالي، ليس فقط بسبب إسهاماته المتعددة، ولا كتبه الكثيرة، ولا كونه درب عدداً كبيراً من زعماء العالم على القيادة والتأثير، وإنما - من وجهة نظري - لأنه اعتمد الأخلاق كمرتكز هام في أي دور يريد لعبه المرء - أو المؤسسة - في الحياة وأننا يجب أن نضع عنا الأنانية والفردية لنحقق «معاً» أحلامنا التي لن تتحق سوى باهتمام كل واحد منا بشركائه في الحياة.

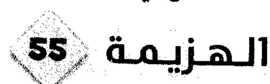
قابلته قبيل وفاته بعام تقريباً أثناء زيارته للقاهرة، وكان مما علق في ذهني وقتها جملة مؤثرة قالها وهي :

«نحن لسنا ما يحدث لنا.. نحن ما نفعله لنتخطى ما يحدث لنا!».

وحكى كوفي أنه ذات يوم وأثناء إجازة كتابية أخذها من الجامعة التي يعمل بها ذهب للإقامة في جزيرة هاواي، وأثناء بحثه وقع على كتاب يتحدث عن سيرة حياة معتقل سابق يدعى فيكتور فرانكل، وكان مما لفت نظر ستفن كوفي للكتاب هو عبارة تقول :

«الفجوة بين الحافز والرد».

يقول كوفي: «لقد كان لهذه العبارة العادية أثراً كبيراً في حياتي، لقد غمرتني بقوة هائلة غير معهودة، وهي أن أتاحت لي الفرصة لأتأمل في كيف يمكن



للناس استثمار المساحة المهمة والخطيرة والمُهملة لدى الكثيرين بين الحافز ورد الفعل».

وهنا كان اكتشاف ستفن كوفي لأحد أهم عادات النجاح لدى البشر وهي عادة المبادرة.

وفي كتابه «العادات السبع»، ذكر قصة فيكتور فرانكل مؤكداً أنها كانت الملهمة له في التوصل إلى أحد أهم أسرار النجاح والتفوق الإنساني، وعبور الأزمات والإخفاقات والهزائم.

يقول: «لقد اكتشف فرانكل شيئاً مهما في أزمة اعتقاله وهو أننا نملك شيئاً جوهرياً لا يستطيع أي سجان أن يأخذه منا، ذلك الذي سماه «آخر الحريات الانسانية»، حرية أن تحلم، أن تُحدث نفسك، أن تدع خيالك يحلق خارج قيود الزمان والمكان ليعانق مستقبلاً تستشرف في وجدانك أنه سيكون أفضل وأحسن..

حرية أن تدخل جنة قلبك تلك الجنة التي لا يمكن أن يمنعك عنها حراس أو قيود.

إننا ـ والكلام لـ كوفي ـ أذكى مخلوقات الأرض، ونظرية بافلوف عن المؤثر والاستجابة يمكن أن تنطبق على الحيوانات أو المرضى والعصابيين، لكنها لا تنطبق علينا نحن، ذلك أن هناك مساحة مهمة وخطيرة بين المؤثر والاستجابة وهي «حرية الاختيار».»



حرية أن تختار في لحظة ما، قرار ما دون أن تقع تحت ضغط الظروف، أو الحالة النفسية، أو ردة الفعل العاطفية، وحينما تفعل هذا تصبح من الفئة القليلة المؤثرة في الحياة والمسماة «المبادرون».

بينما سواد البشر الأعم، فهم أسرى الفعل ورد الفعل، الخالعون إرادتهم أمام ضغوط العاطفة، وجريان العادة، والخوف من النظر في وجه الشدائد وتحديها، وهؤلاء هم «الانفعاليون».

ببساطة، يخبرنا كل من (فرانكل، وكوفي) ومن خلال أبحاث استمرت لعشرات السنوات إلى أن الهزائم (الفعل) تأتينا يقينا ما دمنا نمضي في الحياة بعضها أنت نفسك جزء منه، والسبب فيه، والبعض الآخر قدر ومكتوب يأتيك على حين غفلة، يطعنك في ظهرك وأنت آمن، فما العمل.. ما الحل الأمثل.. ما الذي يجب أن نفعله أمام الهزيمة؟.

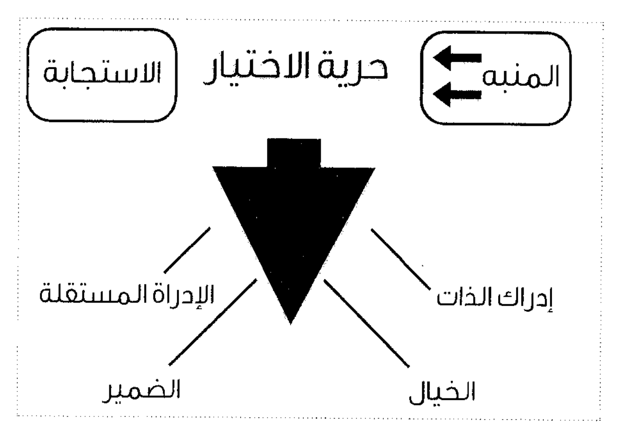
الحل في التريث قبل القيام برد الفعل، أن تكون لديك القدرة على اجترار الحزن، والصمود لفترة تسمح لك بأن تستعيد اتزانك مرة ثانية..

ولذلك قال العرب قديما: «إنما الشجاعة صبر ساعة».

تلك الساعة التي يهرب فيها الجميع وينفضّوا من حول مائدة الحق هي التي يتفاضل خلالها الناس، ويتم معرفة أقدارهم الحقيقية.

ولتوضيح الفكرة وضع كوفي رسماً توضيحياً للفرق الهائل بين (المؤثر

والاستجابة) وأوضح طبيعة الدوافع التي تؤثر على «حرية اختيارنا» و تفاعلنا مع الحدث الذي يواجهنا :



ما الذي يعنيه هذا الرسم؟.

إنه يقول لك أن المرء منا لديه مجموعة فرضيات أو منبهات، ريثما تدق باب حياته يبدأ في الاستجابة بشكل لا إرادي ليقوم برد فعل معين تعود عليه من خلال «جيناته ـ بيئته ـ تربيته».

كأن يظلمك أحدهم فترضى بالظلم، ذلك أن الظلم «وهو المنبه» يستدعي شعوراً بالحزن واليأس وأنك ضحية «وهو الاستجابة التي تعودت عليها».

كأن تقع أو تتعثر أو تفشل فتضطرب خطواتك، وتغيب من أمام عينيك معالم الطريق، لأنك تعودت على أن الفشل يعني أننا قد انتهينا.. أو أننا لسنا أكفاءً للنجاح..

هنا ـ انظر للرسم ـ يؤكد كوفي ـ ومن قبله فرانكل ـ أن الأحرار والفاعلين في الحياة، يلعبون وفق معادلة مختلفة وهي أن لديهم شيئا يسمى «حرية الاختيار» مهما كانت الأزمة أو الكارثة كبيرة، لديك حرية اختيار يغذيها ضمير حي وقدرة لحظية على الإتيان برد فعل مبني على قيم عميقة، وخيال خصب يتيح لك التفكير في مخرج أو حل إبداعي للأزمة التي تعانيها.

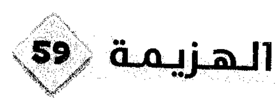
ولذلك نجد أن كل المؤثرين في الحياة لم يعيشوا وفق معادلة (المُنبه - الاستجابة)، لم يتركوا أنفسهم لانفعال لحظي وقتي يملك عليهم حياتهم، لم يتركوا مساحة للغضب، أو الخوف، أو الارتباك، أو الانكسار كي تسيطر عليهم.. وتعال لنرى النماذج :

هذا الإمام ابن القيم الجوزية، يذهب متخفيا لزيارة شيخه الكبير «ابن تيمية» في سجن القلعة، فيجده هانئاً مطمئناً، وعندما يسأله عن حالة الرضا التي يعيشها في السجن، يرد عليه ابن تيمية قائلا : «ماذا عسى أعدائي أن يصنعوا بي، إن قتلوني فقتلي شهادة، وإن أبعدوني فنفيي سياحة، وإن استمر سجني فتلك الخلوة التي أتقرب فيها إلى ربي.. يا بني إن جنتي في صدري».

وهذا «غاندي» الزعيم الهندي الكبير، يقول بعدما اعتقلوه وحاولوا إذلاله:

«إنهم لن يستطيعوا انتزاع احترامنا لأنفسنا إذا لم نسلمه لهم!».

وهذا سيد قطب يقول وهو مخيرٌ بين أن يعتذر وينال حريته، أو يستمر ثابتا على موقفه ويُعدم : «لن أعتذر عن العمل مع الله.. أبداً».



وذاك المجاهد الكبير عمر المختار، يقول بعدما وقع في الأسر، وطُلب منه أن يكتب للمجاهدين يدعوهم لوقف القتال، مع حصوله على عفو شامل: «هذا أمر محال .. يأباه ديني وضميري».

تلك مواقف لنماذج واجهت مشكلات كبرى «موت ـ سجن»، والحياة مليئة بنماذج أخرى، لمواقف أقل من ذلك بكثير..

وفي هذا يقول ستفن كوفي:

«إن ما يلحق بنا الأذى ليس ما يحدث لنا، وإنما استجابتنا لما يحدث لنا ومن المنطقي أن تؤذينا بعض الأشياء نفسياً، وجسدياً، واقتصادياً وتسبب لنا حزن وكرب، غير أن نفسية «المبادر» لا يجب أن يلحق بها الأذى، دعك من أن الأزمات تعتبر هي المحك الرئيسي والهام لإنضاج شخصياتنا واكتشاف قدراتنا ومواهبنا».

ماذا نفعل حال الهزيمة ؟!.

وهنا يأتي دور السؤال العملي، ما الذي يجب أن نفعله عندما تواجهنا أزمة، أو تفجعنا هزيمة ما؟

لازلنا مع ستفن كوفي، وهنا نراه يؤكد على أن المشكلات التي تواجهنا أحد ثلاث:

الأولى: وهي التي تقع تحت سيطرتنا المباشرة وتكون بسبب سلوكنا نحن.

الثانية : التي تقع تحت سيطرتنا غير المباشرة وتكون بسبب سلوك الآخرين.

الثالثة : التي تفرض نفسها علينا ولا نستطيع أن نفعل لها شيئا، كماضينا، أو بيئتنا، أو واقعنا، أو الكوارث والأزمات الكونية مثلاً.

الحل في مواجهة الأزمة الأولى التي تسببنا نحن فيها يكون بأن نولي رد الفعل أهمية أكبر من الفعل، أن نوسع من دائرة تأثيرنا على الحدث، أن نعيد اكتشاف وسائل وطرق تمكننا من التغلب عليها.

للفشل قوة تزيد كلما زاد تفكيرنا فيه، ويُحرم منها كلما زاد تفكيرنا في كيفية النجاح، ابتسامة الفشل تتسع كلما دققنا فيها أكثر، وهذا مما يؤثر في أرواحنا ويجعلنا أسرى له..

ببساطة ووضوح ما دمت أنت سبب المشكلة فعليك ـ أنت ـ أن تخرج منها ولن تجد لدينا أي نوع من التعاطف معك إذا أغلقت بابك وقررت اجترار الأحزان والآلام؛ فكاهل الحياة مليء بالأحزان وعلى كل واحد منا أن يبادر بحل مشاكله الخاصة.

قد تجد في كلامي خيبة أمل، الحقيقة أن ترف الكلمات الحماسية الرنانة لا مكان له ونحن نخلق طريقاً للخروج من معركة أدركتنا فيها الهزيمة.. وليكن معلوماً لديك أن هذا هو هو نفس ما قاله رب العزة لأجدادنا الأوائل حينما تسائلوا فيما بينهم عن سبب هزيمتهم وهم المؤيدين بالوحي، وبينهم رسول

الله ﷺ، قال لهم - جل اسمه - :

﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾
آل عمران – 165

الحقيقة - على مرارتها - هي الأفضل كي نخرج من دائرة الحزن الكاذب والتواكل المذموم.

هي التي تقطع الطريق علينا فلا تعطينا الفرصة كي نغرق في بئر التبرير وخلع المسؤولية.

أراك تسألني : وماذا نفعل إذن في الأزمات التي تحدث لنا من قِبل الآخرين وأجيبك بأن نتعلم كيف نتعامل معها، أن نغير من طريقتنا في التعامل مع الآخرين عندما نرى أن الطريقة السابقة لم تكن موفقة، أن نتسم بالمرونة في التعاطي مع البشر.

نحن لا نُشكل طينة الناس وفق أهوائنا، سنجد الأناني، والوغد، والقاتل والانتهازي.. ولن يجدي نفعاً مع هؤلاء أن نبكي ونحن ننعي اختفاء الشهامة وموات المروءة، واندثار الشرف.

لا يجب أن تكون عاطفياً على طول الخط، ولا عقلانياً مع من يحطمون قواعد المنطق والعقل، ولا تهرب من معركة كان يجب أن تخوضها من أجل اقتناص حقك، ولا تدخل صراعا تعلم أنك تدخله من باب الانتصار للنفس لا لقيمك وقناعاتك..

عُد إلى الرسم التوضيحي السابق لترى أن الفعل الذي سيقابلك من الآخرين تحتاج لأن تتوقف برهة قبل أن ترد عليه، أن تعود إلى قيمك وأخلاقك وقناعاتك قبل أن تقرر ما ستقوم به.

إذا نظرت إلى حياتك السابقة ستجد أن جزءاً من مشاكلك حدث لأنك هربت من معارك كان يجب أن تخوضها، وخضت أخرى كان يجب أن تتجنبها..

تقهقرت عند خوض غمار معركة بحجج «السلامة - الوئام - التعايش» بالرغم من أنها كانت معارك حق، لا يُقبل فيها تهاون، وكان تراخيك في حد ذاته خذلاناً للحق الذي كان يجب أن تدافع عنه وتنصره وتطالب به.

واقتحمت معارك دفعتك لها عصبيتك، ووهم كرامتك المُهانة، وتسرعك.

أؤكد أننا سنلاقي من الناس الأمرين، سيلقون بالعراقيل أمامنا على طول الخط، سنفاجأ بضعف منسوب الشرف عند بعضهم، وربما كان هذا في مواضع حساسة ومواقف حاسمة، والذكي اللبيب من يحمل في جعبته دائما دواءً لكل علة، وحلاً لكل معضلة.

نأتي للمشكلات التي ليس لنا يد فيها، ماذا نفعل في ماضينا السيئ، وبيئة لا نملك تغييرها، ومجتمع مُحبط، وعالم نشعر فيه بالغربة؟.

بعد مشاركتي لك حزنك وألمك، وتفهمي لغربتك وشجنك، اقول لك :

ابتسم !.



ردد في إيمان حقيقي: «قدر الله وما شاء فعل».

اسمع لنبيك ﷺ وهو يهون علينا قائلا :

«إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل».[1]

إن الله يا صاحبي، لا يلومنا إلا على ما كان لنا يد في تغييره وإصلاحه فأعجزتنا هممنا عن فعله، وتراخت قوتنا عن الإتيان به، أما ما هو فوق طاقتنا المعارك التي نُغلب فيها بعدما نفعل كل ما بوسعنا من أجل النصر والفوز فليس علينا تثريب أو لوم إن قلنا: «حسبي الله ونعم الوكيل»، وسلمنا الأمر لله.

ولكن..

لا تسمح لمشاعرك السلبية مع ذلك أن تسيطر عليك، فالتسليم بقضاء الله لا يكون صحيحاً إلا برضانا عن القضاء والقدر، أن نتعلم جيداً كيف نتعايش مع مصائب لا نملك تغييرها.

وليس في الأمر ثمة سلبية أو انكسار، على العكس إننا بهذه الطريقة نمنعها من أن تتوغل فينا، ولا نعطيها القوة كي تسيطر علينا.

لقد ابتهجت ذات يوم عندما دُعيت لإلقاء محاضرة في إحدى جمعيات «رعاية المكفوفين» في مدينة أسوان بصعيد مصر، وسبب سعادتي شيئان:

1. رواه أبي داود وأحمد.

الأول : أن وجدت لي جمهوراً لا بأس به بين هذه الفئة العظيمة والمهمشة من البشر.

أما السبب الثاني : فهو تعليق أحد الحضور على كلمتي التي ألقيتها وتحديداً، عندما قلت لهم:

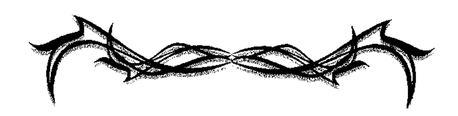
«إن العجز الذي كتبه الله علينا لا يجب أن يمنعنا من الاستمتاع بنعم أخرى لا يستطيع الانتباه إليها إلا من أدركوا قيمة النعمة وجدواها».

حينها قال لي هذا الصديق : إن كل البشر لديهم نوع من العجز.. أليس انحطاط الهمة عجزاً.. أليس الخوف عجزاً.. أليس انعدام البصيرة عجزاً.. لكن عزائنا أن عجزنا كُتب علينا من الخالق ولا سبيل لرده، بينما عجز البعض عجز اختياري، سيحاسبون عليه ولا نُحاسب، ويؤاخذون به ولا نؤاخذ.. ويتعذبون به ولا نتعذب!.



ما أعظم هذا الدرس!.. وأروع تلك التجربة!.. أي نفس تلك التي تسكن في جسد هذا الصديق؟!..

ظني أنها نفس عظيمة روضت عجزها.. وأعجزته.







تكيف مع الهزيمة!

«لقد أتت الأوامر الآن.. يجب أن تغادروا غزة قبل أن تشتعل الحرب..»

كانت هذه العبارة المقتضبة هي ما دفعنا بسرعة كي نبدأ في تجهيز حقائبنا مساء الليلة التي قُتل فيها القائد في كتائب عز الدين القسام «أحمد الجعبري».

بسرعة صعدنا «أنا والشاعر عبدالرحمن يوسف والكاتب نبيل فاروق والإعلامي مصطفى الحسيني والصحفي أحمد الليثي» إلى غرفنا نلملم أغراضنا على عجل وتخبط.

في الظلام حيث انقطعت الأضواء عن غرف الفندق أخذنا نضع حاجياتنا على عجل، أصوات القذائف تقطع حبل تفكيرنا، وتصيبنا بالكثير من الارتباك والخوف، وبالرغم من كون الفندق الذي نقطن فيه يتبع الأمم المتحدة، إلا أن وجود أرض فضاء بجواره يُعتقد أنها قاعدة صواريخ تحت الأرض، كان سبباً لتدك قذائف الصهاينة المنطقة بشكل كثيف.. كان الفندق يرتج، والشظايا تصل حتى نوافذ الغرف!.

دقائق معدودة وكنا في الحافلة، والتي ما إن تحركت حتى توقف السائق

مقرراً العودة مرة ثانية، والسبب أننا قد دخلنا فعلياً أجواء الحرب، واستهداف المركبة صار أمراً متوقعاً.

عدنا ثانية إلى الفندق ومكثنا في بهوه طوال الليل نلتقط الأخبار، ونحاول - كإعلاميين - أن نسجل ما يحدث ونفهم جل ما يدور حولنا..

بجواري جلس الشباب المكلف بحراستنا، كانت تبدو على وجوههم الجدية المخلوطة بالثقة والثبات، وعندما حاصرت البوارج الصهيونية سواحل غزة حتى أضاءت بكشافاتها باحة الفندق وحولته إلى نهار، بدأنا نسمع همساً عن احتمالية هجوم بري على القطاع، وهو - كما كنت أعلم مسبقاً - غاية المنى لكتائب المقاومة، حيث تتلاقى الجيوش على الأرض، وعندها يرى كل منهما من أشد بأساً وقوة.

لم نستطع النوم ليلتها، ومع بزوغ شمس اليوم الجديد تحركنا إلى مستشفى «الشفاء» حيث المصابين والشهداء، قررنا قبل أن نرحل التمهل قليلاً لنخضب العين بمرأى من سقطوا وهم يدافعون عن شرف عروبتنا، وإسلامنا.

مع دخولنا إلى ساحة المستشفى قابلتنا زخات الرصاص، طمئننا المرافق بأن هذه زفة شهيد!.

وتوالت أصوات الرصاص واستمر عرس الشهداء قائماً طوال مرورنا على أقسام المستشفى المختلفة، نواسي هذا، ونطمئن على ذلك، ونحن في ذهول مما نراه.



انتهت الزيارة وعدنا إلى مقاعدنا في رحلة الخروج من أرض المعركة، يتملك بعضنا شيء من الحزن لما حدث، ويملك معظمنا شعوراً بالحرج، خاصة ونحن نفر من معركة كان يجب أن نتواجد في قلبها حتى تنتهي.

فليست دماؤنا بأغلى من دماء هذا الشعب الأبيّ، وهو ما لم يحبذه المرافقون لنا حيث أننا كنا نُعد ثقلاً وهماً ومسؤلية، وحملاً بحاجة إلى التخفف منه، وأمانة يجب الاطمئنان إلى أنها ستصل بلادها سليمة!.

وفي الطريق إلى معبر رفح لفت نظرنا عرس يتم التجهيز له!، تعجبنا أن في هذا الوقت الحرج ووسط هذا الكم من الشهداء والجرحى هناك من يحتفل بزواجه، وعندما نقلنا تعجبنا إلى مرافقنا قال : وهذا أيضاً من المقاومة!.

إنه مما يغيظ عدوك أن يجد لديك القوة على الاستمرار في العيش وهو يقطع أمامك كل سبلها، إن معظم هذه المباني قد دمرت من قبل وها هي أمامكم شاهقة سليمة كأن لم يمسسها سوء.

لقد تكيفنا مع ما يحدث بشكل يثير عجب ودهشة العدو، ليس تكيف استسلام، ولكن تكيف من يملك المرونة ليعيش ويبدع ويجتهد تحت أسوء الظروف!.

والحقيقة أن معايشتي ومشاهدتي في زياراتي السابقة لغزة أكدت لي هذا المفهوم، حيث يوجد في هذا القطاع المحاصر أفضل مكتبة عامة للطفل وقعت عليها عيني «مركز ومكتبة القطان»، كما أن المدارس والجامعات تعمل بكامل

طاقتها رغم الحرب، وهو ما أسفر عن نسبة أمية تقترب من ٠٪، وهو ما يعد شيئا من الخيال، كما أن القطاع المحاصر به نسبة اكتفاء ذاتي من الخضروات والماشية والطيور، دعك من الإبداع في تطوير بعض الأسلحة المستخدمة في المقاومة والحروب.

إن أحد أهم طرق مقاومة الهزيمة يكون بالقدرة على التكيف مع لحظات الضغط، ذلك أن الهزائم تأتي ومعها مخزون كبير من الصعوبات والأزمات والشدائد التي يفرضها المنتصر علينا.

وتكيفنا هنا يكون تكيفاً لا يمكن أن نصفه بالسلبية والرضى بالأمر الواقع وإنما هو القدرة على تلقي الأزمة والتفاعل وفق مستجداتها المفروضة، مع تأهيل نفسي لقيادة زمام المقاومة من جديد.

ولذلك فإن أكثر الناس بؤساً هم من يفقدون القدرة على التأقلم مع المصائب التي تحل عليهم، ويحدث لديهم نوع من إنكار ورفض الواقع، وهو ما يسلمهم في النهاية إلى حالة من اليأس الشديد، والقنوط القاتل.

عندما تخسر تجارتك، أو تفجع في خيانة صديقك، أو تتحطم سفينة حياتك الأسرية، أو تفقد مركزك المرموق، أو يضيع حلمك بعدما دنى واقترب أكثر من أي وقت مضى، في تلك اللحظات القاسية الخطيرة تتباين ردود الفعل.. ويظهر جلياً الفرق بين من يملك القدرة على امتصاص الصدمة واستيعابها والتعامل وفق القواعد الجديدة، ومن يصرخ ويرفض ويقاوم بعفوية غير

مصدق لما يحدث.. وفي الغالب فإن هذا الصنف الأخير هو الذي يسلم نفسه لليأس والاستسلام فيما بعد، ويصبح - مع مقاومته التي رأيناها أول الأمر - الأقرب إلى الانقياد والتسليم بالهزيمة، و أول من يفنى وينتهي!.

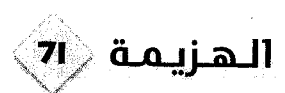
الإنكار، ومحاولة الهروب من الواقع، والاختباء من أن يراني الآخرون، ورفض رؤية أي شيء يذكرني بالماضي الذي كنت فيه، وربما إيهام النفس وخداعها، - للأسف - يكون حلاً بالنسبة إلى البعض.

أذكر أنني قرأت قديماً في صفحة «بريد الجمعة» والتي كان يقوم على تحريرها والرد على قرائها الأستاذ عبدالوهاب مطاوع - رحمه الله - ، أن سيدة أرسلت تشكو مأساتها مع زوجها الذي يعمل في جهاز أمني كبير والذي بسبب عمله نال شهرة واحتراما كبيرين في محيطه الاجتماعي، إلى أن فوجئت السيدة بأن الجهاز الذي يعمل به زوجها قد استغنى عن خدماته، وأنه منذ سنوات يمارس نفس الطقوس، يلبس صباحاً ملابسه الرسمية، ويأتي سائق قد استأجره خصيصاً كي يقله ويفتح له الباب ويعطيه التحية العسكرية ويستقل السيارة التي اشتراها - وتشبه السيارة الرسمية - ؛ ليجلس يومياً ولمدة سنوات على مقهى ليعود في نفس موعد عودته ويمشي متبختراً رافعاً أنفه لأعلى[1]!.

والحقيقة أن مثل هذا الرجل الذي ظن أن الحياة تمضي وفق هواه وما يشتهي ونسي أن الدهر مليء بالمفاجآت وجعبته لا تنضب من الحيل، هو نموذج لكُثر يرفضون الاتسام بالمرونة والتوائم مع ما يستجد مهما كان قاسياً.

---

1. تم



ضع فوق هذا شيئا هاما، وهو أنه ليس صادقا بالضرورة كل ما نراه من عاطفة جياشة!، ورب دمعة ساكنة حزينة تجاهد كي تخرج من عين رجل صامد يحاول لملمة شتات نفسه أكثر صدقاً من نواح أسمع القاصي والداني.

ولعلي هنا أتذكر موقفاً له دلالته حكاه الزعيم الهندي «نهرو» في مذكراته عندما أرسله أبوه ليتعلم في جامعات لندن، ذلك أن بعض الطلاب الهنود هناك قاموا بإنشاء جمعية سياسية لهم تناقش أمر الاحتلال البريطاني للهند وتتحدث عن أهمية الاستقلال.

يقول نهرو: «كانت العصبية شديدة، والعاطفة مبالغٌ فيها، والتحمس كبيراً متطرفاً، ولأني كنت قليل الكلام فقد كنت دائما هدفاً للنقد، ومتهماً بضعف الحس الوطني، ومرت الأيام وعاد هؤلاء الطلاب إلى الهند، فاكتشفت أمراً عجيباً، لقد وجدت هؤلاء المتحمسين بالذات قد أصبحوا موظفين في إدارة الانتداب الانجليزي في الهند، ولم يلعبوا في الحركات السياسية أي دور فعال أين ذهب سخطهم على الانجليز؟!، أين ذهب حماسهم العنيف؟!، كل هذا تبدد على المكاتب الفاخرة التي أعدها الانجليز لهم في الهند!».

يتعجب نهرو - الذي سُجِن وكافح وحارب من أجل استقلال الهند - من هؤلاء الذين كانوا يصرخون غضباً، ويضربون المناضد بقبضاتهم في جنون أين الدور الذي كان مرجوا منهم.. بل و أين ذهبوا هم أنفسهم؟!.

هل خانوا مبادئهم، أم تبدل في وعيهم شيء ما، أم أن الأمر لا يعدو أن

يكون عاطفة غير سوية أخذت وقتها ثم ذهبت عندما تحدث المال وتكلمت المصالح بصوت عالٍ أخّاذ..؟!.

وما أذهب إليه هو أن رؤيتهم للاحتلال، والهزيمة التي تقبع فيها بلادهم كانت رؤية عاطفية، ولم يكونوا متكيفين مع الحدث بشكل صحيح، مما دفعهم لإفراغ شحنة مشاعر.. والسلام.

ولذلك أعود للتأكيد على أن القفز فوق الهزيمة يحتاج إلى غير قليل من التكيف مع المستجدات القائمة، وتوجيه الذهن لبذل جهد إيجابي ناضج في تحديها والتغلب عليها.

أما هؤلاء الذين يتجمدون في فزع، أو يصرخون بالرفض، فينطبق عليهم ما يسميه علماء النفس «الجمود الإدراكي»، حيث الوقوف والتبلد والذهول وللأسف وصولنا لهذه المرحلة ـ تحديداً ـ يعني أننا قد هُزمنا بالفعل، وأننا قد وُضِعنا ـ ضمنا ـ في قبورنا حتى وإن تأخرت أجسدانا عن الرحيل قليلاً أو كثيراً!.

فما قيمة أي شيء إذا ما هَرِم العقل وصارت مقاومتنا لما نحن فيه صفراً.

؟ ولعلي بقارئ يسألني: كيف يمكننا التكيف مع هزيمة تدير الرأس، والتفاعل بإيجابية مع مصائب تأكل الفؤاد؟

وأجيبك معترضاً: من قال أنه ينبغي للهزيمة أن «تدير الرأس»، أو «تأكل الفؤاد»، لا تخبرني بأن هذا هو حال المصائب دائماً، فالحقيقة عكس ادعائك.

أما سمعت قول النبي ﷺ وهو يعطينا مفهوماً دافعاً لمقاومة الصدمات بقوله:

«إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[1].



إنه يلفت انتباهك إلى أن الصمود الحقيقي، والاتزان الكامل يكون في بداية الحدث ومع مقدمه، وليس في هذا أبداً تقليلاً من حجم الأزمة والكارثة.

لكن الصبر الذي نرجوه متوقف بشكل كبير على مخزون القيم والمفاهيم التي تحكم المرء منا، وتشكل وعيه وسلوكه وتفاعله الحركي مع الأحداث والمستجدات.

لذلك نجد أن النبي ﷺ يحثنا على التفاعل الإيجابي مع الحدث السيء دون إضاعة الوقت في التشتت والندم المرير، وذلك بنصحه لنا عند حدوث مصيبة ما بألا نقول :

«لو أني فعلت كذا وكذا.. بل قل قدر الله وما شاء فعل»[2].

وهي طريقة نفسية عبقرية تتيح لنا امتصاص الصدمة، والتسليم بقضاء وقدر ليس لنا حيلة في تغييره، وتوجيه الذهن ليصبح أكثر مرونة وتكيفا مع الحدث.

---

1. رواه البخاري.
2. رواه مسلم.

وقد يفهم صديق كلامي على أنه دعوة للرضا بواقع فرض نفسه علينا أو نتكيف تكيف المستسلم القنوع، وهذا - يقيناً - ليس مرادي، وإنما ما أود التأسيس له ابتداء هو أن الاعتراف بوجود الصدمة أو الهزيمة أمر لا بد منه مع الوضع في الاعتبار أنك غير راض عن استمرارها، أو بأن تفرض نفسها كأمر واقع تعيش فيه، فالاعتراف بالهزيمة شيء وأن تقبلها وتقبل هيمنتها عليك شيء آخر..

نعم، هُزمنا.. نعم، أُرهقنا.. نعم، خابت حساباتنا وخططنا ورؤانا المستقبلية.

وهذا الاعتراف على ما فيه من مرارة وحزن وألم، إلا أنه يجب أن يُستتبع بمجموعة خطوات أخرى، تكون بمثابة المقاومة الحقيقة الواقعية، المبنية على فهم وفقه الواقع.

ولعلك يا صديقي، أدركت لماذا بدأت معك حديثي بقصتي «صقر قريش» عبدالرحمن بن معاوية، وفيكتور فرانكل الطبيب النفسي صاحب مأساة السجون النازية، لأنهما يجسدان تجسيداً حقيقياً ومريراً ومؤلماً الهزيمة وما يستتبعها من ردود فعل.

فالأول أمير ولد على فراش من حرير، وتربى بين القصور وعاش في رعاية جده الخليفة الأموي، وبين يوم وليلة تغير كل شيء، ليصبح طريداً شريداً وحيداً، يأكل الفتات، وينام على الأرض، ويتحسس رقبته كل ساعة ليطمئن

أنها لا تزال في موضعها، ليس هذا أبداً بالأمر الهين ولا البسيط، ولو لم يستطع أن يتقبل الوضع الجديد ويتفاعل معه، وينسلخ من حالة الرفض التي انتابت الكثيرين من أمراء - بني أمية - ما كان ليصل إلى ما وصل إليه.

كذلك فيكتور فرانكل الطبيب الشاب الذي تفتح له الدنيا ذراعيها ويستقبله المحفل العلمي بحفاوة وترحاب، ويمني النفس بنجاح يخدم به البشرية، ثم فجأة يرى انهيار كل شيء، فأسرته قد قتلت، بينما هو واقع في الأسر تُمارس ضده كل أساليب التعذيب والإهانة ومع ذلك يتسم بمرونة فكرية ونفسية تجعله يتأقلم مع وضع لا يقدر على تغييره، ويستثمر هذه الأزمة القاسية لإخراج نظريات وأفكار تساعد الناس.. الحقيقة أن هذا أيضاً ليس أمراً هيناً ولا بسيطاً.



ومن حق صديق آخر أن يسألني عما بعد الاعتراف بالهزيمة وما الذي سنفعل بعد التكيف معها..؟

دعني أقترح عليك تلك الطريقة التي يلجأ إليها المبدعون بشكل عام في حالة الأزمات «سواء الفكرية الإبداعية أو الحياتية القدرية» والتي تتكون من محطات أو مراحل، مجرد دخولنا فيها يعني أننا فعليا قد بدأنا في المرونة الإيجابية والتعامل التكتيكي السليم مع الأزمة أو الهزيمة :



عندما ننهزم يجب أن نسأل «لماذا انهزمنا - وكيف انهزمنا؟».

ونتبعهما بسؤال آخر «كيف نتغلب على الهزيمة؟».

إن تعويض الهزيمة لن يطرق باب الذهن إلا إذا تأهلنا نفسياً للدوران حول الحلول والمخارج، بأن نتعلم ونسأل ونعرف أكثر.

قبل عام اتصل بي صديق قديم من إحدى الدول العربية، قال لي بأنه سيحضر إلى مصر، وأنه سيكون متواجداً في فندق شيراتون لحضور مؤتمر عن الإرشاد الأسري، وأنه سيلقي محاضرة خلال فعاليات المؤتمر، وطلب مني حضورها.

والحقيقة أن هذا الصديق أعادني بمكالمته تلك إلى ما قبل ثمان سنوات، حينما قابلني وهو حزين بائس يريد الزواج مرة ثانية، وعندما سألته عن السبب ذكر لي أن زوجته الحالية لا تملك حظاً من الرومانسية والدلال الذي يسمع عنه ويتمنى أن يراه!.

حينها تحدثنا عن أن بعض المجتمعات تفرض على الفتاة تربية معينة تحول بينها وبين تثقيف نفسها، ومواكبة ما هو جديد لتصبح أجمل وأروع في عين زوجها، ثم عتبت عليه أنه - وفق كلامه - لم يقدم لها مساعدة، ولم يأخذ بيدها لترتقي.



وأنه يجب أن يهتم بدوره التثقيفي ويقوم بكل جهد مستطاع قبل أن يرفع يده ويقرر الرحيل!.

وعندما سألني : كيف يستطيع فعل ذلك، وهو يشعر برتابة وبرود كبيرين؟.

عرضت عليه أن يحضر معي دورة في العلاقات الأسرية وأن يقرأ بعض الكتب التي أرى أنها ذات فائدة، وفعل صديقي ما أشرت عليه به..

والحقيقة أنه تغير تغيراً كبيراً، ذلك أنه كان يشعر ببؤس وحزن وإحباط وشعور بالهزيمة في حياته الأسرية.

كان الجهل هو السبب والمعرفة هي الدواء، لكن الأمانة تقتدي التأكيد على أنه كانت لدى صديقي رغبة صادقة في الإصلاح، إرادة لم ينل منها الإحباط، شجاعة كي يرى نفسه جزءاً من المشكلة بدلاً من أن يرى نفسه ضحية ومجني عليه.

تلك هي المحطة الأولى... أن نعرف أكثر.. نتعلم.. نجمع بين أيدينا كل شيء عن المشكلة سواء كانت «أسرية ـ مادية ـ تربوية ـ وظيفية ـ روحانية ـ سياسية».

نقرأ أهم «وإن لم يكن كل» ما كُتب عن مشكلتنا، ونوسع الأفق بطرح فرضيات جديدة كانت غائبة عنا ونحن تحت تأثير الهزيمة.



السكون، التفكر، كشف الحساب الذي تقيم بناء عليه ما أنت فيه.

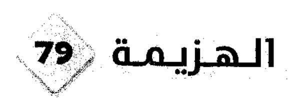
تحولك من دائرة «لماذا فشلت؟» الضيقة إلى براح «كيف سأنهض؟».

إن اختلاءك بنفسك لتتدبر وتتأمل فيما قرأته، وما الذي استفدته، وكيف تستطيع أن تنفذه كلها أمور لازمة.

بوضوح، أنت بحاجة إلى تركيز نفسي وعقلي كبير كي تنهض من كبوتك الهزيمة تصيبنا بالترهل الذهني والنفسي، نشعر أننا لا نستطيع السيطرة الكاملة ولا نملك اللياقة الكافية، ولذلك من أعظم النصائح النبوية عند ارتباك الذهن والحيرة بشكل عام هو «الاستشارة» ومن ثم «الاستخارة».

أن تسأل، وتستشير، وتحاول البحث عن حل للأزمة، ثم تقف بين يدي الله خاشعاً لتسأله التوفيق والسداد.. الخلوة هامة، البُعد عن الضوضاء، عن المثيرات التي قد تقطع نسكك وخلوتك.

ربما يكون من الجيد أن تسافر إلى مكان ما كنوع من تغيير الجو المُحبط المحيط بك، تجديد المكان قد يتبعه تجديد في الفكر وانتعاش في الذهن.



المحطة الثالثة «العصف الذهني»:

عملية توليد الأفكار، طرح خطط العمل، إخراج الخواطر والأفكار من الذهن إلى الورق.

هنا ستقوم بكتابة كل الأفكار، والأطروحات، والخطط التي ترى أنها قد تكون مفيدة في تخطي هذه الأزمة أو المشكلة أو الهزيمة.

نصيحة الخبراء هنا ألا تستبعد فكرة زارتك أبداً مهما كانت مجنونة أو غريبة أو حتى غبية!.

اجعل همك مركزاً على طرح المزيد والمزيد من الأفكار والخطط.

بعد ذلك يمكنك أن تذهب إلى أهل الثقة والكفاءة، إلى أصدقاء أو أقارب أو حتى خبراء بمقابل مادي.

أنت هنا ستبدأ في مناقشة هذه الأفكار ومن ثم غربلتها لإخراج الغير مناسب منها، ووجود أذهان أخرى إلى جانب ذهنك ـ خاصة إذا كانوا خارج إطار الأزمة التي تمر بها ـ سيوفر لك رأياً غير مكبل بمحاذير، وآراءً أكثر تفتحاً وحرية، وبيئة أكثر صحة.

يحذرنا الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - من أن «الأفكار العظيمة ينال منها أن تظل أمداً طويلاً تتردد في عقول أصحابها».

ينبهنا - رحمه الله - أن من أخطائنا الكبيرة أن تولد في أذهاننا الأفكار والحلول بل والخطط، ثم نصبر عليها أمداً يطول بأي حجة كانت، حتى تعطب الفكرة وتبرد الحماسة، وتخور العزيمة.

لذلك كان الأمر من الله أنه «إذا عزمت فتوكل على الله».

ميزة العمل والحركة بعد التفكير والتدبير هو أنه يرفع من حالتي الأمل والتفاؤل اللذين نحتاجهما وبشدة في حربنا على الفشل وخروجنا من دائرة الهزيمة.

الحقيقة أن تلك المحطات الأربعة «البحث - التأمل - العصف الذهني - العمل» هي الدورة الطبيعية التي لا يمكن أبداً إغفال أحدها عندما نود استدراك الأمر، والعودة إلى حلبة المعركة مرة ثانية.

ولكن ..

قبل البدء في مرحلة البحث عن مخرج، أريدك أن تضع في ذهنك شيئاً هاماً وهو الإيمان بأن ما أنت فيه هو من عمل يدك، جزء ما من المسؤلية حتى وإن كان بسيطاً يعود إليك، وتحملك للمسؤولية جزء حيوي في خطواتك القادمة،

حتى وإن كانت هناك خيانة من أحد، ضربة في الظهر، تغير في حالة قائمة بشكل مفاجئ وغير متوقع.

كل هذه الأشياء لا تقف عندها كثيراً، قف فقط أمام الجزء ـ الكبير أو الصغير ـ الذي تسببت أنت فيه، لا تلم الآخرين فلن يجدي هذا نفعاً، تركيزك يجب أن يكون على ذاتك، إنك ببساطة لا تملك السيطرة إلا عليها.

وسبب أهمية هذه الوقفة أن ما مضى من حياتك درس لما هو آت، ومع هذا لا يعني كلامي أن تقوم بعملية جلد ذات، أو أن تزيد من حالة الإحباط التي تتملكك في الأساس، وإنما مرادي أن يدفعك هذا إلى تحمل جهد مضاعف للخروج من أزمة كنت أنت أحد أسباب وقوعك فيها، وأنت وحدك السبب في الخروج منها بعد فضل الله وتوفيقه.

ثم بعد ذلك عليك أن تعي الأهداف المرحلية «التكتيكية» الهامة في رحلة التغلب على الهزيمة.

لا زلت بالطبع تذكر كلمة عبدالرحمن بن معاوية حينما سُئل عن خطته لحيازة المُلك فقال: «أن أبقى حياً»، تخيل معي حاله وهو نائم في العراء غير آمن على نفسه، غير عالم بما يدور في الأندلس من صراع، غير مطمئن لما يمكن أن تأتي به الساعات القادمة، ثم هو في نفس الوقت يتذكر مُلكاً قد ضاع منه.

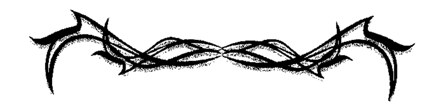
عبقريته هنا كانت في أنه قسّم مهمته الكبيرة لأجزاء، وجعل على رأس أولوياته أن يوفر أدنى مطلب من مطالبها وهو «العيش».

عندما تصيب المرء منا كارثة تهبط به إلى القاع، فإنه للأسف يبدأ في المقارنة بين حال وحال، وقد يأنف من أن يمشي الطريق من أوله، ويصعب عليه أن يكون همه توفير حاجياته الأساسية من مطعم ومشرب بعدما كان في بحبوحة من العيش والسلطة والنفوذ ويتحكم في أرزاق ومعيشة الغير.

لكن الحقيقة أن عدم البدء في وضع هدف مرحلي أولي مهما كان بسيطاً وضئيلاً هو جزء من عدم التكيف الذي تحدثنا عنه.

وختاماً لهذه الفقرة عليك أن تتذكر شيئاً هاماً، أن الهزيمة واردة، ونكرانها لا يعني أنها غير موجودة.

فطنتك في أن تكون رباطة جأشك حاضرة، وأن تعترف بخسارة الجولة، وترفض خسارة الحرب، وتبدأ من فورك في مراجعة شاملة وحقيقية لأسباب خسارتك.. ومقومات مقاومتك.





الخوف

عبقرياً كان أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) - رضي الله عنه - حين قال: «الناس من خوف الذل في ذل».



ذلك أننا كثيراً ما ننكسر دون أن نخوض المعركة، وننهزم قبل أن نشهر سيفاً!

نتراجع وقد كبلت أرواحنا سلاسل السلامة، ووقفت في طريقنا أشباح تطالبنا بأن نكون أكثر حكمة وهدوءاً، وأن.. نعود أدراجنا للخلف.

ومع أن الحكمة والتدبر والتمهل أمور هامة - خاصة - وقت الهزيمة، إلا أنها قد تكون معاني زائفة لمعنى آخر يُدعى «الخوف».

يظن البعض أن الهزيمة تعني أنك ضعيف، وعليك أن ترهب عدوك للأبد، أن تلزم مكاناً عرّفك خصمك إياه وأمرك بعدم مفارقته، والحقيقة أنهم بخوفهم هذا يقتلون أنفسهم مراراً وتكراراً، فمما علمنا إياه أسلافنا أن :

«الشجاع يموت مرة واحدة .. بينما الجبان يموت مرات ومرات».



يموت مع كل صيحة يحسبها عليه، مع كل حركة يراها تربص به، مع كل بارقة أمل يظنها فخاً أُعد له.. إنه يعذب نفسه بداعي السلامة.

أو هذه حياة..!؟

الخوف كشعور يصنفه علماء النفس في خانة «المشاعر السلبية»، وهي تلك المشاعر التي نحتاج إلى القليل منها، فإذا زادت وطغت كانت وبالاً كبيراً.

نحن نحتاج للقليل من الخوف كي نكون أكثر حرصاً وانتباهاً، ولولاه لكانت البلادة وعدم المبالاة هما الغالبان على حياتنا وأثناء معاركنا، من هنا كان القليل منه نافعاً وهاماً.

أما الخوف من أن نقتحم، ونتقدم، ونعمل، ونجرب..

الخوف من أن نُعَبِر عن أنفسنا.. وذاتنا.. ونكون ما نود أن نكونه..

فهذا هو الخوف الذي يكسرنا ويمنعنا من مواصلة الرحلة..

قبل أشهر كنت في الطائرة قادماً من الدار البيضاء متجهاً إلى مسقط، رحلة طويلة وشاقة ومرهقة، زاد من توترها عطل مفاجئ لم نعرف كنهه، لكنه جعل الطائرة كريشة في مهب الريح، ارتفعت صرخات الركاب، وعلا بكاء الأطفال، بدا وكأننا فعلياً في الطريق إلى العالم الآخر، أكثر من عشرين دقيقة والطائرة تتأرجح بشكل غير عادي، وقلوبنا تصعد وتهبط في وجل، زاد من مخاوفنا أن المضيفات قد جلسن واجمات وكأنهن يعرفن شيئاً لا يردن البوح به!.

تمتمت الشفاه بالشهادة .. وكان لطف الله حاضراً ..

مرت الأزمة بسلام، واستطاع قائد الطائرة أن يملك زمامها، ويزف إلينا نبأ انتهاء الكبوة، حمدنا الله، وبدأت أنفاسنا في العودة إلى حالها الطبيعي، والوجوم ينسحب تدريجياً من على وجوهنا.

حينها نظرت إلى وجوه من حولي سائلاً : أيهما فكر في أنه لن يذهب إلى عمله في الصباح!؟ أو أنه لن يشتري سيارة جديدة، أو بيتاً أفضل؟!.

شخصياً لم يزر ذهني أبداً أي تفكير في محاضرتي القادمة، ولا أعمالي التي يكتظ بها جدولي، كل ما شغل بالي هو تلك الأشياء التي كان يجب أن أنهيها في حياتي لكنني لم أفعل، بسبب الخوف الذي منعني، والتسويف الذي خدعني والمخاطر التي توهمتها..

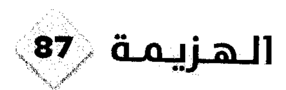
حينها نظرت إلى وجوه من في الطائرة متسائلاً :

ترى كم من هؤلاء - لو كان قدر الله غير ما كان - يمكن أن نقول بأن حياته قد بيعت بالرخيص؟!.

الحقيقة أن حياة الخوف هي حياة رخيصة.. رخيصة جداً.. بخسة..

والمؤسف أن يراها البعض.. حياة السلامة!.

إن الخوف قاسم مشترك بين كثير من البشر، بداية بمن يقبل وظيفة لا تعبر عن أحلامه خوفاً من ألا يجد غيرها، مروراً بمن يخاف من شراء شيء يحلم



به توجساً من اتهامات قد تطوله بأنه غير مدرك لما يجب أن يقوم به، وانتهاء بالخوف من خوض معركة من أجل الكرامة والشرف..

والشجاعة لا تُجزأ.. والذي يخاف من تسيير حياته وفق ما يشتهي ويرى لن يحارب من أجل ما يحب ويؤمن..

ومن خاف من ليلة ينامها بغير طعام؛ لن يجسر على مواجهة صعب قد يُطير النوم من عينه شهوراً.. فضلاً عن منازلة قد تطير برأسه بعيداً.

والشجاعة تربية وتمرس..

ولعلي بسائل.. وما الخوف؟!

نعم.. ما هو تعريف الخوف؟.

أهو الارتجافة التي تصيب القلب حال رؤية ما نخشاه، أو حدوث ما لا نرتجيه..؟!.

أهو الهلع من فقدان شيء، أو شخص..؟

ربما يكون هذا تعريفك للخوف، لكنني أُعرفه هنا تعريفاً آخر:

خوفك هو خيانتك لقيمك ومبادئك وقناعاتك ومهاراتك ومواهبك وحكمتك !.

الخوف هو ذلك السور العالي الذي ما إن تصل إليه حتى تنسى ما كنت تردده من أناشيد حماسية، وأحلام، وتطلعات نبيلة .

هو المسافة الفاصلة بين جهرك بالحق وأنت آمن.. وصمتك عنه عند الخطر، بين حديثك الجهوري وأنت بين عشيرتك رافعاً جبهتك، والدوران حوله وأنت وحدك تستثقل رأسك.

وللأسف، نحن نتربى على الخوف، نرضعه من ثدي واقعنا الذي ولد مطأطئ الرأس، نتعلمه ضمن أبجديات الحياة ومفردات العيش، حتى يصير جزءًا منا ونكون جزءًا منه.

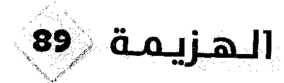
في عامي الأخير بمدرستي الإعدادية، حدث وأن تصادمت مع أحد المدرسين، أُتهمت بذنب لم أقترفه، وخُيرت ما بين اعتذار أو عقاب.. وبلا إبطاء رفضت كليهما!.

كنت قوياً ببأس الحق الذي أملكه، وكان المدرس قوياً بسلطة يمتلكها، وتم استدعاء أبي للمدرسة.

قال لي بعدما عدنا للمنزل : لماذا لم تعتذر؟، قلت : لأنني لم أخطئ.

ففاجئني أبي بقوله: لكنه قادر على إيذائك، وكان يمكن أن يمر الموضوع بشكل أبسط؟!.

وقتها كنت بحاجة لمن يؤكد لي أنني قد فعلت الصواب وأنه يجب أن أدافع عن حق أملكه، ولا أرضى بوضع ضعيف أو الاستسلام لجريمة لم أرتكبها.



وازن أبي بين مستقبلي وبعض التنازلات البسيطة، بينما قارنت أنا بين عزة نفسي وانكسار مؤلم..

والحقيقة أن هذا الموقف ـ على صغره ـ كاد يمثل عائقاً نفسياً لي.. إنه ببساطة يخبرني بأن:

«اخفض رأسك لكل عاصفة»، ويلي إذن؛ فالحياة كلها عواصف..

إلى أن قرأت خاطرة للشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ في تفسيره لقول الله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾

سورة النساء – 97

ذكر الشيخ رحمه الله أن هناك صنفاً من الناس سماهم الله «ظالمين» بالرغم من كونهم مضطهدين ومظلومين، والسبب هو أنهم رضوا بالاستضعاف واستكانوا أمام ظلم الآخرين لهم، تعاتبهم الملائكة أن هاجروا إذا ما انعدمت سبل الحياة الكريمة.

وفي النهاية، كان مأوى من قَبِل الظلم هو هو ذات مأوى الظالمين، كلاهما في جهنم .. وساءت مصيرا.

إن هذه الآيه تُعد تحذيراً خطيراً، وترهيباً مريعاً لحاملي مبدأ «السلامة»،

والمُنظرين لوجهة النظر القائلة: «إن طأطأة الرأس شيء لا مناص منه أمام الظالم».. إنها صاعقة تضرب رأس الخوف.

هذا فوق الأزمة التي يعيشها الخائف في الدنيا، حيث لا طريق أمامه إلا أن يعيش حياة «التصنع»، أن يرتدي قناعاً من الافتعال، أن يصرف جهداً كبيراً في إقناع نفسه بأنه على حق، وأن ليس ثمة طريق آخر.

وهذا ـ تالله ـ عذاب ما بعده عذاب، دعك من أن «من خاف من العفريت يخرج له»، وأن الناس من خوف الذل في ذل كما أخبرنا أبو الحسن ـ رضي الله عنه ـ.

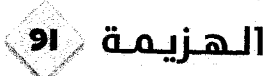
والحل..؟!

واجه مخاوفك وسوف تتحرر، لا تتابع الدوران في نفس الدائرة المُغلقة!

اعلم أن عمراً من الخوف لا يمكن أن تستعيده بكلمات حماسية، ولكن مصادمتك لمخاوفك هي الحل الأول والأهم، ستجد وقتئذ أن كثيراً مما كنت ترهبه لم يكن موجوداً سوى في رأسك فقط، وأن الواقع ـ على ما فيه ـ أكثر أماناً مما كنت تتخيل..

فقلت لقلبي إن نزا بك نزوة من الهم   تقدم.. أكثر الخوف باطله..

افهم هذا جيداً.. الخوف هو العاطفة الأشد تدميراً لحضورك الذهني ويعد المجهول هو البيئة الملائمة لنموه وتمكنه منك، ولا سبيل لديك سوى تعرية الخوف وفضحه، بكشف زيفه وتسلطه الكاذب عليك..



صدقني، كل ما خشيناه طوال أعمارنا السابقة كان من نسج خيالهم.. أوخيالنا!.

كم شبح صنعناه وغذيناه وأطلقناه في أرواحنا ليكبر ويتضخم، ويفرض سطوته علينا ؟!.

هل تعلم ما هو الشيء الأكثر مأساوية من خوفنا الدائم ورهبتنا المستمرة؟

هو أن يدفعنا الخوف لنكون غير ما نحن عليه.. يقوضنا يمنعنا من النمو الطبيعي، والتعبير الطبيعي، والرقي والانطلاق الطبيعي؟!.

ودعني أسألك : هل جربت يوماً أن تقف أمام المرآة وتنظر في عينيك وتبتسم إبتسامة رضا؟!.

أؤكد لك أن معظم البشر لا يستطيعون ذلك!، سيشعرون أن هذا الواقف أمامهم لا يعبر عنهم!، لا يعدو أكثر من شخص صُنع بشكل يرضي الناس ويحقق أملهم هم فيه، لا يعبر أبداً عن صفاء نفسه، وجمال روحه، ومبادئه قبل أن تتغير ويطولها الدخن.

دخن الخوف.. والتردد.. والجبن..

تمرد يا صاحبي.. عبر عن نفسك بلا خوف أو رهبة أو ارتباك..

كن ذاتك الحقيقية، لا ذاتك التي صنعتها لإرضاء من حولك..



ولكن حذار!..

فالبعض ممن يتمرد على سابق حياته يتطرف، كمن عاش عمره ضريراً ثم أضيء النور في عينيه فجأة؛ فتخبط وتصادم بشكل لم يكن يفعله في حالته الأولى المعتمة.

الأمر إذن في حاجة - بجانب الشجاعة - إلى حكمة وحسن تدبير.

ونأتي لسؤالنا المشروع، كيف أهزم خوفي وأتحرر منه؟.

قلنا : إن الخوف في حد ذاته هزيمة، ويكتسب قوته وعنفوانه من غموضه.

أولى خطواتنا إذن لدحره هي أن نعرفه جيداً، نحدده، نضع له تعريفاً ثم نبدأ في مواجهته، وإذا كان تعريفنا للخوف هو خيانتك لنفسك وقيمك ومهاراتك وقدراتك وما تؤمن به، تكون خطتنا إذن مبنية على تحقيق ذاتك الحقيقية، على جعل ما تؤمن به هو المحرك لكل تصرفاتك وخطواتك، أن تكون نفسك.

أخبرونا في علم الإدارة أن السؤال الأول كي نمضي إلى الأمام «كأشخاص أو كمؤسسات» هو سؤال أنفسنا عن أمرين هامين :

(من أنا؟ - وماذا أريد؟).

«من أنا» تعني «ما قيمي - ما أحلامي - ما قدراتي» و«ماذا أريد» تعني «ما المكان الذي أريد أن أقف فيه، ويشعرني بالانسجام والتوافق مع ما أؤمن به».

مشكلة الخوف أنه يمنعني من أن أجري هذه المعادلة بصدق وحيادية، ولربما لا يمنعني من معرفة نفسي وذاتي، لكنه سيقف كحجر عثرة أمام أن أكون ما أريده، سيأخذني إلى طريق آخر يزعم لي أنه الأكثر أمناً وطمأنينة، سيجعلني أؤمن بحلم ليس حلمي، ويُجري على لساني ما لا يلتمع في دياجير عقلي ويطالبني بالصمت في وقت لاينفع فيه الصمت أو السكوت!.

أنا هنا أتحدث عن الخوف بكل أشكاله، سواء خوفك من إدارة حياتك، أو خوفك من التفاعل مع قيمك، أو الخوف من نطق كلمة الحق في وجه ظالم..

كل هذا الخوف يأتيك من قِبل مبدأ «السلامة تقتضي أن تكون عكس ما أنت عليه، كن مع القطيع، لا تكن - قط - شاذاً برأيك؛ فيسهل تمييزك ومن ثم اصطيادك».

كل ما عليك فعله الآن هو تحديد نقطة الضعف، ما الذي يجب أن تتمرد عليه تحديداً، هل هو عملك الذي تدور فيه برتابة وعدم حماس، أم هو نمط حياتك الذي يسمح للآخرين بالتدخل فيه ومن ثم توجيهك، أم عاداتك الشخصية التي تدفعك إلى التخلي عن رأيك ولا تصر عليه مخافة أن يغضب هذا أو يجرحك ذاك؟

هل خوفك من ذهاب لذة، شيء ما تختلسه في غفلة من ضمير وعين رقيب تخشى إن أنت واجهته أن يذهب منك؟.

هل مشكلتك الحقيقية في أنك خائف من أن تُتْهم بشذوذ الفكر طلباً لتميز

زائف، أم عدم قدرتك على اتخاذ قرار هام إلا بعد استشارة شخص ما كي يتحمل معك شيئاً من المسئولية؟

هل الأزمة في أنك تخشى نطق كلمة الحق كي لا تخسر مركزاً، أو تُغضب جمهوراً، أو تتعرض للنقد الذي قد يُذهب بكل ما حصلت عليه خلال السنوات الماضية؟

أم هو السجن الذي قد يفتح بابه لك؛ إذا قلت ما تؤمن به فصادف وأزعج طاغية ما؟

حدد نقطة ضعفك جيداً.. اعترف بها.. أنظر كم خسرت بسبب خوفك هذا.. كم تغربت عن ذاتك الحقيقية.. وكم تشتاق إلى أن تعود إليها وتعود إليك!.

عندما تحدد نوع وطبيعة الخوف الذي يهزمك، عليك أن تحدد بعدها الطريق الذي يجب أن تسلكه، دع المعركة تدور بينك وبين نفسك، وازن بين مكاسب حققتها شخصيتك المستعارة، وأخرى ستنعم بها عندما تحقق ذاتك الحقيقية.

(أحمد بن حنبل) في محنته المسماه بـ «خلق القرآن»، عاش نفس حالتك، قيل له أن المعركة لا تعدو أكثر من كلام ليس له قيمة، قل كلمة تنجيك من ضرب السياط والتعذيب.

لكن نفسه لم تستطب تقديم هذا التنازل البسيط، قال لناصحه : «أنظر من فتحة الزنزانة، واحص كم من الخلق أتى ليسمع ما الذي يقوله (ابن حنبل)

لن يهنأ ضميري إن خنت ثقة هؤلاء، وزيفت لهم شيئًا من الحقيقة وإن كان في نظر البعض ضئيلاً».

سقراط (أبو الفلاسفة)، وقف في المحكمة وهو يعلم أن حكم الإعدام قادم إن تشبث برأيه، لكن هذا لم يزده إلا يقيناً، وهو يرد على تهم ساذجة كاذبة :

«لو أعفيت من الموت فإنني سأظل أجاهد في نفس الطريق الذي اخترته سابقاً، وهو محو الجهل، ونفع الناس، وقول ما أؤمن به».

(سيد قطب)، وُضع في موضع مماثل، كان الخيار أمامه: «قدم اعتذاراً تبريراً، أو تحليلاً مختلفاً لما كتبته في كتبك يمكننا به إنقاذ رأسك من حبل المشنقة»، فكان رده واضحاً : «لا تجوز التوريه في أمور العقيدة».

وهذا ـ شاعر النيل ـ (حافظ إبراهيم)، كل ما طُلب منه كي يعمل في جريدة الأهرام ـ وكان في أمس الحاجة لذلك ـ ألا ينتقد شيئاً يضر بالإنجليز المحتلين فرفض عرضهم قائلا :

إذا نطقت فقاع السجن متكأ وإن سكت فإن النفس لم تطبِ

معركة تدور رحاها في النفس، اتركها تشتعل بداخلك، فتلك المعارك هي التي توقظ الضمير، وتزلزل الأركان، وتعيد دخول النور إلى نفسك وذاتك.

حددنا ما نخاف منه، آن الآوان إذن لنأخذ القرار..!

وهنا ألمح شبح ابتسامة ساخرة.. كأني بك غير راضٍ عن قولي السهل

البسيط.. «اتخذ قراراً وغير من نفسك تغييراً جذرياً».. والحقيقة أن هذا ما أ, جوه فعلاً.. ما الذي تريده كي تعرف خطورة ما أنت فيه؟!.. ما الخطط التي ,و د أن أسوقها لك كي تكون شجاعاً؟!..

حسبك أنك غير مطمئن كي تتحرك، يكفي أن حياتك تُباع بالرخيص كي تقوم..

ليس في جعبتي أية حيل أو خطط.

دعني أسألك ما الذي يمنعك من أن تطوي هذا الكتاب جانباً وتقوم من فورك لتسرق؟

أنت تعلم أن السرقة ليست بالصعوبة التي يتصورها البعض، ويمكننا بحيلة أو أخرى أن نسرق ونحتال.

الذي يمنعك إذن شيء غير الجهل، غير عدم القدرة، ما يمنعك هو شيء ما بداخلك، يخبرك بأنك إنسان شريف، يمنعك بحزم وقوة من التفكير حتى في ذلك.

هذا الصوت الداخلي هو الذي أريده أن يقول لك: «أنت إنسان شجاع»..

أنا لا أحاول الالتفاف حولك أو خداعك، كل ما أريد فعله هو أن أرمي الكرة في ملعبك، خذها نصيحة مني :

أي تغيير تود فعله في حياتك يحتاج أول ما يحتاج إلى إرادة، وما كل ما نكتبه



ونُنَظِر له إلا أدوات تسهل عليك أو تنظم لك عملية التغيير، أما مناط الأمر فمتوقف عليك، وأمره مردود إليك، وليس غيرك قادراً عليه.

وما مثلي ومثلك إلا كما قال أحدهم عن رجل قد جرفه بحر الحياة حتى كاد يغرقه، لكنه ظل يجاهد في النجاة مستيئساً، وبينما هو كذلك خارت قواه وشقت عليه المجاهدة، وعندما أتوا له بطبيب يداوي علته، لم يزد الطبيب إلا أن قال :

«ما به من علة ظاهرة، كل ما يحتاج له أن يرى رجلاً مر بما مر به، واستطاع أن يعبر شيئاً من الطريق الوعر وقارب أن يلتقط ثمار الأمل، رجلٌ يخبره أن الحل في معضلة الحياة هو أن ينازلها وجهاً لوجه لا تنثيه عقبة ولا رهبة!».

هذا دوري، أما أنت فعليك ـ بعد عون الله ـ الأمر كله..

إن استشعار الخطر وعدم الراحة هو المبتدأ.. عزيمتك وإرادتك هما عصب الأمر وبنيانه..

يتبقى أن تعمل من فورك، وأكرر أنت لست مطالبًا بفعل الأعاجيب وتخريب حياتك، وقلبها رأساً على عقب، كل ما هنالك أن تستشعر الهزيمة وتروم إيقاف بيع حياتك بالبخس، بوضوح تريد شراء ما بقي من عمرك كي تصنع منه شيئاً مذكوراً.

عليك أن تبدأ في العمل، هذا هو الفرق الجوهري بين أصحاب الأماني وأصحاب المعالي:

الأول ليست له خطة، ولا اتجاه، لم يحدد وجهة، وليس معه خريطة...

أما الثاني ففكر وقدر، وقرر وعزم وتوكل، ولديه هدف وبوصلة وزاد!.

ثم تعال واستمع للفيلسوف الألماني (جوته) ينصح من هم مثلك فيقول:

«دع ذلك الذي يتحسس طريقه في الظلام والضوء المرتجف، يستمسك بهذه الوصية ويحرص عليها كل الحرص وهي: قم بعمل الواجب القريب منك.. فإذا فعلت، صار الواجب الذي يتلوه واضحاً ظاهراً».

هل أنت متردد .. مضطرب .. خائف.. مهزوم..

تود الخروج من حالة الانكسار التي تواجهك؟

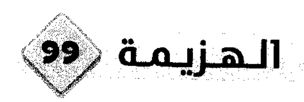
إذن عليك بالقيام بالعمل الآني القريب.. وبلا إبطاء..

هل تعمل في وظيفة لا تعبر عنك؟

ضع خطة للاستقلال المادي، أو ابدأ من فورك في أخذ دورات في مجال تحبه وتعرف أنك ستنجح وتستمتع بنجاحك فيه.

هل تريد إنقاذ وزنك الذي زاد وصار يسحبك إلى نادي البدناء ومحلات XXXXL؟

حسناَ، كل ما عليك فعله أن تبدأ في عمل ريجيم، وممارسة رياضة، والتوقف عن عادات البدناء.



حياتك الزوجية تعيسة، لا حب، لا حميمية، لا دفء؟

عليك أن تبحث عن السبب فيما جعلها كذلك، ثم البدء في الاستشارة والتعلم والسؤال، وجلسات المصارحة، والتعب المضني الخلّاق للوصول إلى معاهدة سلام وراحة.

كل هذه هزائم نلتها في حياتك، ويمنعك الخوف من الفشل أن تواجهها وتتخطاها..

لكني بحاجة لأن أسألك عن هزائم أخرى أشد وأخطر..

هل بعت ضميرك يوماً، هل أعنت ظالماً، هل خالفت ما تعلم أنه حرام أو لا يجوز ؟

هل صفقت مع الرعاع، هل مشيت مع القطيع، هل نظرت خلفك فرأيت دماء الشرفاء تسيل؛ لكنك لم تحرك ساكناً وارتضيت بأن تكون «مواطنًا مسالمًا»؟!

هل حسابك البنكي يتضخم من حرام، هل ثلاجة بيتك بها ما يمكن أن يكون من مال «فيه شبهة»؟!

حسناً.. القرار قرارك..!.

قرأت ذات يوم قصة فتى خرج للقتال مع قومه ليصد جيشاً غازياً، أعطوه سيفاً قصيراً يناسب حجمه، فهزه بيمينه ثم بكى، وخاطب أباه قائلاً:

«إنهم يستصغرون شأني ويعطوني سيفاً قصيراً!».

فضربه أبوه على كتفه وقال: «امض به إلى الأمام؛ يصير طويلاً».

لا يغرنك عِظَم ماضيك الذي ودعته، احمل سلاح عزمك وإن كان قصيراً وسيكبر كلما تقدمت للأمام ثابتاً، واعلم أن شياطين الحياة سيخوفونك صباح مساء..

سيخوفونك يقيناً.. ذلك لأننا نحيا في زمانٍ يحكمنا بالخوف...

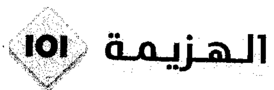
في التجارة يخوفونك كي تشتري شقة الأحلام، ومن أن تفوتك فرصة امتلاك السيارة التي يركبها المميزون...

وفي السياسة يخوفونك كي يأخذوا صوتك الانتخابي، وفي السلطة يخوفونك كي تعطيهم تفويضاً يضعهم في مصاف الآلهة..

التجار، والسياسيون، والإعلاميون.. وقديماً، كان يفعلها الآباء والأمهات والمدرسون.

الخوف من العفاريت، والثعابين، والظلام.. لقد رُبينا على الخوف، لكن الحياة ما تفتأ تؤكد لنا أن الخوف هزيمة، وأن الشجعان هم الرواد.. هم القادة.. هم الآمرون الناهون..

في صدرك نفس، وفي عرقك نبض؛ إذن لا زال لديك الوقت كي تخلع لباس الخوف.



الخوف هزيمة.. وغاية ما ذهبت إليه في كلامي أن أُنفرك من أن يزور الخوف قلبك، أن أُقبِح عندك تحكم الخوف فيك، مؤمناً بأن الخوف على الوظيفة الآمنة مع كونها لا تناسبك هو التمهيد الطبيعي لخوفك من قول كلمة الحق والدفاع عن القيم النبيلة التي تربيت عليها.. وأن خوفنا هذا خيانة لا تليق بأصحاب الرسالات العظيمة.. وأحسبك منهم.



نصف النصر.. هزيمة

الساعة الثانية فجراً..

ليلة اكتمل فيها القمر، وبدت النجوم المتناثرة في السماء قريبة.. شعرت وكأنها تود أن تكون مكاني وتتنازل لي مختارة عن مكانها العالي ووجها المضيء!.

ماضياً لا أعرف وجهتي.. تحملني سيارة صغيرة تخترق شوارع ضيقة يقودها شخص ملثم!.

وفي ساحة واسعة أحاطت بها أشجار سامقة توقفنا، لم تمض دقيقتان حتى كنت محاطاً بهم..

ما يقارب السبعين ملثماً، يرتدون ملابس الجندية، كانوا متأهبين وكأن ناقوس الحرب قد دق من توه، لم يكن لدي ما أتامله سوى تلك الأحداق الحازمة، والتي تخفي خلفها ميراثاً من الإيمان والشجاعة والشرف.. عيون لا يبدو أنها انكسرت يوماً.. وبريق لم تستطع سنوات المحنة أن تُطفئه..

استرح..

نطقها القائد، فتحولت الأسود إلى بشر أمثالنا.. واُستبدل بريق الحزم

بنظرات ود ودفء.. أقبلوا يسلمون علي دون أن يخلعوا اللثام، وطفقت أقبل جباههم رغماً عنهم ..

تبادلنا بعض العبارات الحارة، فاجئني أحدهم بأنه يحمل كتاباً لي.. أهنا؟!.

في ذلك الثغر البعيد الواقع على أعتاب بيت المقدس تصل كلماتي.. كان تأثري شديداً، إلى أن طلب مني قائدهم الكلام، حمدت الله ثم نظرت في عيونهم قائلا :

أنتم المجهولون لأهل الأرض.. تُخفون وجوهكم عنا، لله دركم هو أعلم بكم.. في «معركة نهاوند» جاء رسول من أرض المعركة ينعي قتلى المسلمين لأمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه، بيد أنه قال مستدركاً بعدما رأى انزعاج عمر: «موتى كثر لست تعلمهم يا أمير المؤمنين»، وكأنه يخفف من وطء الصدمة بأن من مات جنود صغار، فصرخ عمر فيه ودموعه تُغرق وجهه :

«وماذا يضرهم إن لم يعرفهم عمر إبن أم عمر، والله يعرفهم بأسمائهم ؟».

وأقول : «وما ضركم إن جهلكم الناس قاطبة، وأسمائكم محفورة في سجل الشرفاء، ووجوهكم معلومة لرب الأرض والسماء..»

مال أحدهم على قائده هامساً، ثم سحب القناع عن وجهه فإذا به شيخ كبير تعدى الستين من العمر!.

تبعه آخر فإذا به شاب لم يكتمل عقده الثاني بعد..

أي غاية هذه التي جمعت بين هذا وذاك.. أي حياة تلك التي أرخصها هؤلاء من أجل نُصرة حق يؤمنون به؟.

تبادلنا حواراً طال قليلاً، علق في ذهني منه قول أحدهم:

«يرآنا بعضهم ضعاف مساكين نواجه أعتى قوى العالم، ويرآنا بعض آخر إرهابيين نروع أمن وهناء الغاصب المعتدي، يحاصروننا وظنهم أن هذا الحصار هو ما قد يعيقنا عن إدراك غايتنا..

هل تعلم ما الذي يشغل بالنا هنا؟ ليس ما يشغل البال هو هل سننتصر أم لا، ولم يدر بخلد أحدنا أن يسأل ما آخر ما نفعله أو ما نفعه، وما على هذا تربينا ولاهذه تربية أبنائنا .. إن ما يشغل البال حقا هو سؤال واحد..

سؤال هو القاسم المشترك بيننا جميعاً شيوخا وفتيانا، وهو هل سيتقبل الله منا سعينا هذا أم لا؟ هل سيكتبنا عنده - جل اسمه - عباداً مخلصين أم لا؟ هل سننضم إلى سلسلة الشهداء التي بدأتها (سمية)، وزانها (حمزة)، واستمرت لتحصد العظماء مِنّا على طول تاريخنا أم أننا لا نرتقي لهذا الشرف؟!

نحن نبذل أرواحنا استكمالاً لسلسلة التضحيات، ذلك أن نكوصنا اليوم أو الغد، أو في أي لحظة تسبق نصرنا الكامل على بني صهيون يعد خيانة لدماء من سبقونا، وبئس الجيل الذي تقف عنده قوافل الشهداء، وتموت بين يديه روح المقاومة والفداء».

وهنا شعرت بأني صغيرٌ في عين نفسي.. أحسست بقوة الحق حينما تنضجه المحنة وتمحصه..

هنا أبصرت الطمأنينة وهي تلقي بظلالها على المظلوم المقاوم.. هنا تعلمت المبدأ الذي كتبت من أجله كتابي هذا وهو أن «الهزيمة حالة.. قرار.. واقع نستسلم له»، أما ما دون ذلك فإنه يعني أن المعركة لم تنته بعد!.

عندهم أدركت بأن النصر والهزيمة ما هما إلا مد و جزر، وحين يهدأ بحر الحرب، يمكننا أن نرى بجلاء شديد من ذا الذي أبحر بعيداً، ونال مبتغاه.

وفي كليهما - المد والجزر - لا يسأل المرء متى ينتهي حالنا هذا؟ ولا يجتر أحزانه ويشكو شكوى العاجز المكسور، وإنما يتقوى، يرمم بنيان مجده المُحطم ويتجهز للحظة التحدي القادمة.. وقتما يشاء الله أن تأتي؛ يكون لها متلقفاً.

إن البعض منا في معاركه يرضى من الغنيمة بالإياب، يعود أدراجه سريعاً وقد امتلك حجة يدافع بها عن تقهقره بأنه قد بذل ما في وسعه، والحقيقة أنه عاد من منتصف المشوار.. أو أقل.

في معاركنا الحياتية يجب أن نعي شيئاً هاماً، وهو أن نصف النصر هزيمة..

الملاكم الذي يشبع منافسه ضرباً ثم يدير ظهره قبل أن يقتنصه بالضربة القاضية، لن يشفع له انتصاره طوال فترة المباراة شيئاً، خصمه هو الذي سيرفع يده محيياً الجمهور، متلقياً التهاني .

الجندي الذي يلقي سلاحه بعد نصر غير مكتمل ويدير ظهره لعدوه الجريح سينال طعنة مباغتة..

نصف النصر هزيمة.. والمؤلم أنها هزيمة بنكهة النصر!

أو نصر بنكهة الهزيمة..

إنه شيء يغتال الفرحة ويرديها..

في تمام الساعة الثانية وخمس دقائق من منتصف نهار اليوم العاشر من شهر رمضان المبارك الموافق السادس من أكتوبر لعام 1973، كان التاريخ على موعد هام كي يكتب فصلين هامين في كل من كتابي (النصر والهزيمة).

حيث فاجأ الجيش المصري نظيره الصهيوني بشنه حرباً هائلة مسترداً ما ضاع من أرضه، وشرفه، وكرامته..

ست سنوات كاملة تجرع فيها المصريون مرارة الهزيمة رشفة تلو أخرى مرارة في الحلق زادها وقوف (موشى ديان) بعد حرب 1967 مختالاً وهو يهتف أمام المذياع مُسمعاً العرب جميعاً والمصريين خاصة:

«إنها الحرب التي أنهت كل الحروب، ولم يبق أمام العرب إلا طلب المقابلة لتقديم فروض الطاعة، لاسيما أنهم يعرفون رقم هاتفي، والعنوان 31 شارع كابلان ـ القدس!».

ست سنوات ذهبت فيها الهيبة، والكرامة، قبل أن يستردها المصريون في

ثلاثة أيام، إثنان وسبعون ساعة جعلت (موشى ديان) نفسه يتخبط كالجرذ مما جعل القيادة والكنيست الصهيوني يبحثان جدياً إخراجه من إدارة الحرب بداعي خوفه وتخاذله، حتى أن الجنرال (إليعازر) ـ رئيس الأركان الصهيوني ـ كتب في مذكراته يقول :

«لم يكن موشى ديان عصبياً أو منفعلاً كعادته، بل كان منهاراً مُحطماً، لا يدري ماذا يفعل، ولا بأي لهجة يتحدث، وكنا نحن كذلك، لا يمكن لأحد مهما أوتي من أسلوب في الكتابة، أن يصور الهزيمة بقدر ما يراها على وجه قائد مهزوم في تقديراته، وخططه، وتاريخه .. هكذا كان دايان».

سطر المصريون يومئذ سطوراً في كتاب العبقرية، وفصولاً في أدب الشجاعة، ومجلدات في فن التخطيط والتنفيذ..

كان هذا قبل يوم الرابع عشر من أكتوبر حين بدأت الكفة في الاختلال والسبب هو التدخل الأميركي السافر، والذي تمثل في الجسر الجوي الذي ربط بينها وبين الصهاينة، ليمدوهم بسلاح لا عدد له، بل تؤكد التقارير العسكرية أنها أمدتهم بأسلحة كانت لا تزال قيد التجربة، تم تجربتها لأول مرة على أرض سيناء .

ولكن في الحقيقة كان هناك سبب آخر لا يقل أهمية في اختلال ميزان النصر وقلل كثيراً من مكاسبنا أثناء التفاوض بعد ذلك، ذكره المشير (عبدالغني الجمسي) ـ رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة وقت الحرب ـ في مذكراته



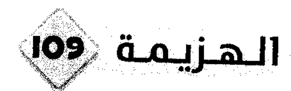
وهو «توقف الجيش المصري عن التوغل وضرب العدو»، توقف التوغل من يوم 10 أكتوبر حتى يوم 13، للتعبئة، وكان هذا ـ في رأيه ـ خطأ كبير حيث كتب في مذكراته:

«كان ترك العدو الإسرائيلي بدون ضغط مستمر عليه معناه انتقال المبادأة له ولا يُنتظر أن تتخذ القوات الإسرائيلية أوضاعاً دفاعية حتى نهاية الحرب، بل ستحاول اختراق أحد القطاعات بالجبهة.. وقد تصل إلى خط القناة، ولذلك يجب حرمانه من هذا الأمر بجعل المبادرة في يدنا دائماً».

لم تستجب القيادة السياسية وقتئذ لرأي المشير (الجمسي)، وكانت استعادة الصهاينة لجزء كبير من عافيتهم خلال هذه الفترة التي توقف فيها المصريون مبتهجين بالنصر، حتى حدث ما حذّر منه الرجل، ووصلت فعلاً الدبابات الإسرائيلية غرب القناة وتوغلت حتى وقفت على مشارف مدينة السويس قبل أن تصدها المقاومة الشعبية الباسلة.. ولكن..

كانت خسارتنا في تلك الأيام، وبسبب ما عُرف فيما بعد بـ «ثغرة الدفرسوار»، الكثير من الجند والعتاد، ووافقنا على طلب وقف إطلاق النار والذي كنا نرفضه طوال فترة المعركة..

نعم، الإنصاف يدفعنا إلى رؤية الحقيقة كاملة وهو أننا بعد يوم الثالث عشر من شهر أكتوبر، كنا نحارب أمريكا وليس الصهاينة، ولكنه أيضاً يجب أن يدفعنا للاعتراف بأننا أخطأنا حينما توقفنا في منتصف المعركة ووسط نصر



مؤزر، وسمحنا لعدونا بأن يسترد عافيته، ويجيش جنده الاحتياطي، ويفيق من صدمة الهزيمة المباغتة.

لا يجب أبداً أن يرشف العاقل شيئاً من كأس النصر قبل أن يضمن تحقق مراده كاملاً، غياب انتباهه للحظة واحدة قد يجر عليه الويلات..

وكم من هزائم لاحقتنا بسبب توقفنا في منتصف المشوار، وكم من انتصارات كنا قاب قوسين أو أدنى من تحقيقها؛ أضاعها علينا سوء التقدير وغياب «النفس الطويل».

إن المجاهد الذي حدثني ونحن نرقب أرضنا المحتلة تجوب فيها سيارات العدو جيئة وذهاباً، والذي كان يؤكد لي على أنه لا تراجع قبل تحقيق النصر الكامل حتى وإن دفع ومن معه حياتهم، دون كلل أو ملل أو تعجل يجعلني أتفائل بأن منا من تعلم الدرس، وأن داء النسيان الذي يصيب العرب قد تعافى منه البعض.

ويجعلني أدير بصري إليك يا صاحبي محذراً من أن تتوقف في حياتك، أو أثناء حرب تواجهها، أو في معركة تبدو بشائر نصرها قريبة دون أن تقتنص نصرك كاملاً.

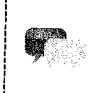
قلنا في فقرة سابقة أن الهزيمة النفسية أحد أخطر ما يواجه المرء منا، وأقول هنا بأن تململك من طول المشوار، ورضاك من الغنيمة بالإياب أمر لا يقل خطراً..



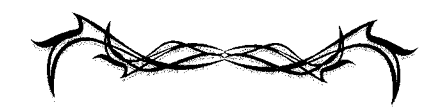
الهزيمة «خبيثة» تأتيك من بين يديك، ومن خلفك.. تزحف كالأفعى بحنان بالغ لتحاصرك في الوقت الذي تشعر فيه بالهدوء والاطمئنان.. وقد تأتيك من فوقك كطائر حطّ على رأسك وأنت غير مدرك لما أنت فيه.. ذاهل برضاك وغبطتك عن نفسك لا تنتبه إلى ما يدور حولك..

ولا تنس فوق هذا أن خصمك قد يلجأ لأن يغذي لديك شعوراً زائفاً بالنصر والسيطرة، حتى إذا ما تماديت في ظنك، فاجئك من حيث لا تتوقع..

تريدني أن ألخص حديثي في جملة واحدة، إليك إذن ما تطلب:



«قاوم للأبد وبضراوة، كن يقظاً منتبهاً على الدوام.. فإما نصر مؤزر كامل غير منقوص، وإما هزيمة مُشرفة، وأعظم سلوى الخاسر أن يشعر بأنه لم يُقصر أو يتخاذل».





العقل الثقيل

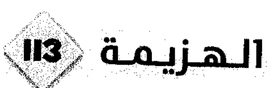
موقف يصيبني بالدهشة كلما طالعت سيرة النبي (محمد)ﷺ.

ألا وهو توليته ﷺ للفتى اليافع (أسامة بن زيد) - رضي الله عنه - جيشاً كبيراً كي يواجه قوى عظمى كالروم، جيش كان من ضمن جنوده (أبو بكر الصديق) و(عمر بن الخطاب) و(سعد بن أبي وقاص) و(أبي عبيدة بن الجراح) رضي الله عنهم.

أعجب من إصرار النبي ﷺ وغضبه عندما اعترض بعض الصحابة على أن يولى فتى في السابعة عشر من عمره جيشاً كبيراً كهذا، ويعينه على رأس قادة كبار.

وبالرغم من عودة جيش أسامة غانماً حتى قيل: «إِنَّهُ ما رُئِيَ جيْشٌ أسلم وأغْنَمُ من جَيْش أُسامة بن زيد»، إلا أن مبلغ دهشتي هو ذهاب النبي ﷺ إلى أن تمكين هذا الشاب من امتلاك ناصية القيادة، وإصراره الشديد - ومن بعده خليفته أبوبكر رضي الله عنه - على أن يكون هو - لا غيره - المقارع والمنازل للروم وقادتهم الكبار.

كان إنفاذ جيش (أسامة بن زيد) أحد القرارت التي اتخذها النبي ﷺ قبيل



وفاته مباشرة، والسؤال: «أكانت ثمة حكمة في هذا القرار، الذي تعجب له حتى كبار الصحابة؟».

الحقيقة أنه يطيب لي أن أرى في هذا الموقف شيئاً هاماً ألا وهو ذهاب النبي ﷺ إلى تجديد نشاط الذهن المسلم في معاركه الحربية، وسعيه كي يكسب المسلمون نضجاً وإبداعاً وتجديداً من خلال إشراك الشباب في تحمل مسئولية القيادة، ومنازلة العمالقة، وتمحصيهم بالخبرات العملية الحقيقية، فيحدث النضج المبكر مع وجود الإبداع الشبابي والهمة الفتية الوثابة.

إن الشيوخ هم الخبرة التي نحتاجها ونطمئن إلى نصائحها وتوجيهاتها، لكن الشباب هم الوقود والمحرك، وإذا ما توفرت للشباب الخبرة العملية أمكنه أن ينال جزءا لا بأس به من خبرات الشيوخ في سن مبكرة، مع إبداع يليق بإشراق عقله، وميله الفطري لكسر الأنماط التقليدية المتعارف عليه.

ولقد ذكرت هذه الخاطرة ها هنا كي أعرج منها إلى شيء هام، وهو خطورة أن تستمر ذهنية ما في التعامل مع المواقف والأحداث بخبرات سابقة، وتمضي في معاركها وهي تتعامل بنفس المنطق، والأسلوب، والفكر، والطريقة، بلا إبداع متجدد، أو ابتكار مدهش.

أن يصبح الإيمان بالقديم - مع تقديرنا له - أحد المعايير التي نزن بها استقامتنا ونبرهن بها على أننا لا زلنا على الدرب ماضين.

لقد مُنيت كثير من الحركات الإصلاحية بهزائم متكررة بسبب التوقف

عن الإبداع والتجديد، وعدم إفساح الطريق لجيل جديد كي يأخذ دفة القيادة كان خوفهم من التعثر الذي قد يطيح بدعوتهم، ورهبتهم من أن تتأثر الحركة بقفزات الشباب الوثابة الجريئة حجر عثرة اتخذه الخصوم للإيقاع بهم، وكيف لا وقد صارت رؤاهم واضحة، وأفكارهم مقروءة، وخطواتهم المستقبلية لا يخطئها داهية متمرس.

والحقيقة التي قد لا يخبرك بها أحد، أن الخبرة والقراءة والتأمل على ما لهم من مميزات كبيرة وهامة، إلا أن أي منهم قد لا يكون منجداً لك وقت المحنة أو وقت الهزيمة!.

لا تعجب من كلامي، فليس مقصدي النيل من تراثنا الفكري، ولا خبراتنا المتراكمة، ولا حتى أشكك في أهمية ما نملكه من مخزون فكري وحركي حصلناه من القراءة والبحث واستقراء الواقع ودراسته، وإنما مقصدي التحذير من أن يمنعنا كل هذا عن الإبداع والخروج من نطاق المألوف، والتفكير خارج الصندوق.

في كتابه «33 استراتيجية للحرب» يؤكد الكاتب والمفكر الأميركي «روبرت جرين» على هذا المعنى فيقول :

«افهم هذا : أعظم الجنرالات، والاستراتيجين الخلاقين، لا يتفوقون بسبب امتلاكهم معارف أكبر، بل لأنهم قادرون عند الضرورة على التخلي عن مفاهيمهم السابقة والتركيز بكثافة على اللحظة الراهنة، هكذا يشتعل الابتكار

وتغنم الفرص.. فالمعرفة والخبرة والنظرية، كلها لها حدود.. وليس ثمة مقدار من التفكير مقدماً يمكنه أن يجعلك مستعداً لفوضى الحياة.»

وهذا أيضاً ما أكد عليه الجنرال والفيلسوف الحربي الشهير «كارل فون كلاوزفيتز» في كتابه «عن الحرب»، حيث أكد وهو يتحدث عما أسماه «الشقاق»:

على أن هناك شقاق سيحدث لنا في مواجهاتنا مع أعدائنا.

فجوة بين ما خططنا له وما سيحدث في الواقع، وأكد على أن هذا أمر محتوم فمهما كانت توقعاتنا صائبة إلا أن الرياح كثيراً ما تأتي بعكس ما يشتهي الربان.

وما دام الشقاق محتوم - وفق تأكيده - فينبغي إذن أن تكون أذهاننا قادرة على مواكبة التغيير والتأقلم مع ما هو غير متوقع، وكلما كانت قدرتنا على التكيف والتأقلم كبيرة كلما كانت أفكارنا أكثر إبداعاً في طرح الحلول.

وعلى العكس كلما كنا أكثر تمسكاً وتبحراً في النظريات الجاهزة، وفي تجارب الماضي، كلما كان ردنا غير متناسب ووهمي.

ثم يختم حديثه مؤكداً على أنه من الجيد أن نقوم بتحليل أخطائنا الماضية لنستفيد منها مستقبلاً، لكن الأكثر أهمية أن نطور قدرتنا على التفكير في الراهن فبهذه الطريقة سنرتكب أخطاء أقل، بحيث لا نحتاج لتحليل الكثير لاحقاً.

من هنا جاءت أهمية أن نتخفف من عبء الماضي، أو لنقل بشكل أكثر دقة

نتخفف من هاجس سيطرته علينا، فسواء كان الماضي «نصراً أو هزيمة»، فإننا بحاجة إلى أن نتعامل بأذهان مرنة.

وأعود ثانية إلى المفكر (روبرت جرين) حيث يعطينا نصائح هامة في هذا الصدد أذكر منها بتصرف :

- **راجع مبادئك ومعتقداتك العزيزة عليك :**

ذلك أن (نابليون بونابارت) أحد أكثر القادة تميزاً سئل عن مبادئه التي يتبعها أثناء الحرب فأجاب بأنه لا يتبع أي مبادئ.

كانت عبقريته تكمن في قدرته على التجاوب مع أي ظروف، والاستفادة إلى الحد الأقصى مما لديه.

وأنا هنا أنصحك بأن دراسة التاريخ والنظريات يمكن أن تفيدك في توسيع أفقك، لكن عليك في المقابل أن تقاوم ميل النظريات إلى أن تتصلب كن قاسياً مع الماضي، مع التقاليد، مع الأساليب القديمة، شن حرباً على الأصوات المقدسة التي تتردد بداخلك!.

- **امح ذكرى الحرب الأخيرة :**

الحرب الأخيرة التي خضتها تمثل خطراً عليك، حتى لو كنت انتصرت فيها.

ذلك أنها لا تزال ماثلة في ذهنك، فإذا كنت قد انتصرت فيها فستميل إلى

تكرار نفس الاستراتيجيات التي استعملتها، هذا لأن النجاح يجعلنا كسالى راضين عن النفس.

أما إذا كنت خاسراً في معركتك الأخيرة فأغلب الظن أنك ستصبح متردداً وغير حازم، نصيحتي أن تركز على تفاصيل الحاضر.

- استوعب روح الزمن :

كثير من معاركنا تكون كلاسيكية، حرب بين ماضٍ ومستقبل، الذكي هو من يقتطف من روح المستقبل لا الذي ينتمي إلى عصور سحيقة.

يمكنك أن ترى كيف أن هناك فنانين وكتاب وقادة استطاعوا الحفاظ على مكانهم في الصدارة لأنهم لم يتجمدوا، بالرغم من سنهم المتقدم، الحاضر يحتاج لذهن سابق لزمانه، لا لذهن متحجر ثابت.

- عقلية حرب العصابات :

إذا لم تكن جيشاً نظاميا - بمعنى الكلمة - فالفرصة مواتية لك كي تتعامل بعقلية حرب العصابات، المسلحون في حرب العصابات لا يملكون خطة دقيقة، ليس لديهم مدد ثابت، لا يكررون التكتيك نفسه مرتين.

ومع ذلك فالتاريخ يخبرنا بأن حرب العصابات مرهقة ومؤلمة للجيوش النظامية، لماذا؟

لأن المحارب بهذه الاستراتيجية يهتم بعنصر المفاجأة، يفوز بالتحرك الدائم



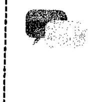
يحرص على أن يكون متقدماً بخطوة، يتجاوب بخفة مع الأوضاع الناشئة ويصيغ بسهولة خططاً توافق ما يحدث أو يُستجد.

? هل ترى في كلامي دعوة لعدم التخطيط، ونسف دروس الماضي، وإهمال الخبرات؟!

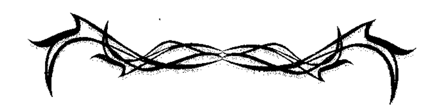
الواقع أن لا شيء من هذا أردته، وإنما أردت منك أن تؤمن بخطورة الأنماط الثابتة، والاستراتيجيات المحفوظة.

أردت منك أن تثق بعقلك الشاب، وبما وهبك الله من عزم وذكاء متقد ورغبة فطرية في التغيير والإبداع.

أردت أن ألفت انتباهك إلى أن الكثير من هزائمنا جاء من تقديسنا - لا ثقتنا - للشعر الأبيض، وتعاليم الرواد.



أردت يا صاحبي أن أخبرك بأن (أسامة بن زيد) ذي السبعة عشر ربيعاً كان يجلس على كرسي القيادة بينما يجلس على كرسي الجندية (سعد بن أبي وقاص).





لماذا لا ننتحر إذن ؟!

صيف عام 1940..

الشمس تفرض سطوتها على مصر مختالة بحرارتها الشديدة المصطافون يجلسون على شاطئ الأسكندرية، ويتابعون الموج هادراً يحمل معه نسيمًا مشبعًا برذاذ منعش عليل..

تجمعت الأنظارعند شاب يبدو في الثلاثين من عمره، تلوح فوق شفتيه ابتسامة تائهة غير مطمئنة، يحمل في يده كيسًا مليئًا بالحلوى يوزعه على الأطفال وهم حوله يتقافزون في فرح جزل..

أنهى الشاب مهمته ثم خلع ملابسه واهتم بوضعها على الشاطئ.. طواها جيداً وكأنه يطمئن عليها.. ثم مشى ببطء نحو البحر حتى اختفى عن الأنظار..

ساعة من نهار أو أقل حتى جاء الموج حاملاً جثة الشاب اليافع، لم تفلح أي محاولات للإسعاف، وعندما أتوا بملابسه بحثاً عن هوية الغريق كي يخبروا أهله ، وهنا كانت المفاجأة حين عثروا على خطاب موجه إلى وكيل النيابة الذي سيصرح بدفن الجثة!.

لقد انتحر الشاب وترك من بعده وصية مفادها أنه انتحر كُرهاً للحياة وأوصى بأن تحرق جثته وألا تدفن في مقابر المسلمين!

وبالعودة إلى بطاقة هويته، عُرف أنه الشاب الموهوب الذكي النابه (إسماعيل أدهم)، والذي كان حديث الوسط الثقافي بأكمله، بآراءه وكتبه، والتي كان أخطرها كتابه الصغير «لماذا أنا مُلحد!؟».

والذي كان يُعرف نفسه وقتها بأنه الحاصل على دكتوراة في الفلسفة من روسيا، وينحدر من عائلة تركية عريقة، إلا أن الأستاذ (رجاء النقاش) في كتابه «تأملات في الإنسان» كان له رأي آخر حيث يقول:

«ولقد حدثني عدد من الأصدقاء الذين عاشوا في الإسكندرية، وعرفوا (إسماعيل أدهم)، أن القصة الحقيقية لهذا الشاب هي أنه ابن لأسرة مصرية فقيرة في الأسكندرية، تعلم تعليماً محدوداً، وكان يمتاز بالذكاء الحاد.. فانصرف إلى الدراسة والقراءة، واختار الفلسفة والرياضيات، وتقدم في دراسته الحرة حتى وصل إلى مستوى ملحوظ في فهم المسائل الصعبة، وكان يبحث لنفسه عن طريق في الحياة، طريق يعمل منه ويكسب، ولكن الطريق كان مسدوداً أمامه، ذلك أن المجتمع وقتئذ كان يواجه أزمة عنيفة، مما يصعب على المرء الذي لا يملك شيئاً من أصل أو نسب أو شهادة تعليمية أن يحل مشاكله الخاصة!».

كان الإنجليز يسيطرون على كل شيء، ويمنعون العباقرة من تبوء مكانة تسمح لهم بالعطاء وخدمة بلدهم، ومن ثم لجأ (إسماعيل أدهم) إلى حل، وهو

أن يكذب على المجتمع ويتظاهر أمام الناس، فأطلق ذقنه، وقال أنه مستشرق نال الدكتوراة من روسيا، وهو في حقيقته سكندري الأصل والمنشأ وفقير لا يعرف روسيا وليس له علاقة بها من أي نوع، ومن أين للناس أن يعرفوا الحقيقة ومصر وقتئذ لم تكن لها أي علاقة دبلوماسية مع روسيا؟!

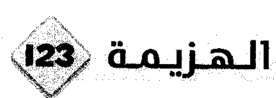
كتب أدهم كثيراً في الرياضيات والطبيعة، كان يعيش حياة تعيسة قاسية على قروش تأتي من هنا أو هناك، لم يكن الكذب كافياً لذا لجأ إلى التحدي فألف كتابه «لماذا أنا ملحد؟» والذي يُعد من أجرأ الكتب في الثقافة العربية الحديثة..

كان أدهم قبل تأليفه للكتاب يلقى إهمالاً بين الناس.. فأصبح بعد تأليفه مهملاً وملعوناً في الوقت ذاته..

لكنه ظل يعاند فيكتب، وينشر مقالاته في تحد للجميع، كانت له أبحاث عبقرية، وكتابات جيدة، لكنه انهزم ولم يستطع أن يتحمل الديون التي تراكمت عليه.. فانتحر!

وبالرغم من أن موضوع نشأته وأصوله التركية وشهادة الدكتوراة الروسية ليس عليه إجماع من حيث التصديق أو التكذيب، فلا يوجد ما يؤكدها إلا روايته هو نفسه.

إلا أن ما يعنينا هنا هو أنه وباتفاق الجميع كان رجلاً ذكياً نبيهاً.. لكنه غير حكيم!.



انكسر أمام شدائد الحياة، لم يتحمل جحود الناس لعلمه، وإنكاره، وإهمال وجوده..

رأى أن القفز من قارب الحياة هو الحل المتاح، وكفره بالله والناس والمجتمع والتقاليد هو أفضل رد على ما به من حنق وغيظ وفاقة..

والحياة تخبرنا أن الظلم عندما يقع على فقراء الحكمة يكونون أكثر قابلية لظلم أنفسهم والآخرين، مهما بلغوا من العلم والمكانة، بينما طيب النفس والفهم الأصيل لطبيعة الحياة وتقلباتها يجعلنا أكثر هدوءًا وإيجابية في تفاعلنا معها.. بل وأكثر تحضراً أيضاً.

إن الانتحار خيار مطروح وبقوة أمام البعض عندما ينهزمون، عندما يشعرون أن هناك أزمة، أنهم بدأوا مباراة حياتهم وقد مُني مرماهم بهدف أو هدفين، ويحتاجون إلى تعويض خسارتهم قبل أن يفكروا في إحراز الفوز، فيحملون أنفسهم وأحلامهم وطموحاتهم وآمالهم العريضة ثم يلقي بهم من حالق!.

قلت في كتاب سابق لي أن الانتحار ليس فقط إزهاق الروح، ذلك أن البعض قد يجبن عن قتل نفسه، أو قد يمنعه خوف ورهبة من الله أن يبدد تلك الهدية الغالية التي منحه إياها.

? ولكن أليس الانكسار والرضى بواقع لا نرضاه يُعد انتحاراً أيضاً؟.



الانتحار هروب.. فرار من المعركة.. وضع السلاح ورفع الراية البيضاء وطلب الخروج الآمن المخزي المهين..

الفيلسوف الأميركي (والدو إمرسون) يقول منبها :

«يهب الله لكل عقل الخيار بين الحقيقة والراحة.. اختر منهما ما شئت.. لكنك أبداً لن تظفر بكليهما!.

إن من يختار الراحة لا يشاهد الحقيقة، ومن يختار الحقيقة يظل جواباً سابحاً، بعيداً عن كل مرفأ..

أن تكون عظيماً فلا بد أن يساء فهمك!.. كي تكون عظيماً ينبغي أن تنشق عن السائد المألوف، ومن يريد أن يجمع ثمرة النخيل الخالد، ينبغي ألا يعوقه ما يسميه الناس «خيراً» بل يجب أن يكتشف بنفسه إن كان ذلك خيراً حقاً ؟!».

ما الذي يقوله هذا الرجل؟!

يخبرك بوضوح لا يحمل لبساً أن عليك الاختيار بين أن ترتاح في قبر تئد فيه أحلامك، أو تتأهب للكفاح باحثاً عن الحقيقة التي تُخلد ذكرك..

هو لم يكن حانياً ولا مجاملاً حين أخبرك أن العظمة والرجولة تستدعي من الناس أن تسيء فيك الظن، لكنه يمدك بالنصيحة في أن تتمرد على المألوف، ألا يوقفك ما اصطلح الناس على تسميته «الخير» أو «الأمان» أو «الرضا».

اقتحم بنفسك المعترك؛ إذا أردت أن تكون عظيماً حقاً !.



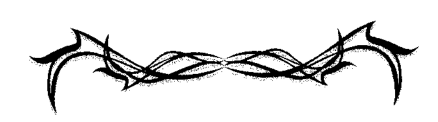
عليك أن تختار بين أن تنتحر بسكين الإحباط أو أن تدرك الحقيقة..

حقيقة أن الهبوط على جزيرة الأحلام ببالون لا يحدث سوى في أفلام الرسوم المتحركة!.

حقيقة أن الطريق لما تشتهي طويل.. وضيق..

وفوق هذا فإن السائرين فيه قليلون.. دروب الحق موحشة.. لكنها السبيل الوحيد..

وفهم تلك الحقيقة هو فقط الذي سيجعلك لا تنتحر.. هو الذي سيجعلك محافظاً على حلمك بين جنبيك رافضاً أن يخلعه أحد منك فضلاً عن أن تلقيه أنت بإرادتك.





حكمة الهزيمة

لعلها كانت حكمة إلهية أن ينال المسلمون هزيمة قاسية مبكرة في ‹‹معركة أحد››!

حكمة مفادها أن الهزيمة لا تخاصم فريقاً لكونه قريبًا من الحق، مؤيدًا بالوحي، ولكون قائده خير الناس، وأشجعهم، وأحكمهم، وأتقاهم..

كانت الهزيمة المبكرة بمثابة المصل الحيوي لقوى الحق في كل زمان ومكان ومؤشراً هاماً على أنه لا مندوحة لأحد من مجابهة المصائب والأزمات، ولهذا كان حملة اللواء في صدر الإسلام موقنين في دواخلهم أن الهزيمة واردة في أي حرب، وأن التصديق بموعود الله لا تهزه كبوة، أو أزمة كبيرة كانت أو صغيرة..

وللهزيمة زواياها المختلفة، لن يعدم المرء زاوية يجد فيها معنى إيجابي يتخفف به من الزوايا الأخرى السلبية، والمتبحر في سير الرجال يمكنه أن يرى كيف صهر الألم نفوساً، ودفعها لتلمس النجاة عبر حشد مواهبها للنزال والنضال حتى تفتقت العبقرية، وبرق النبوغ، وبزغ النجم..!

ولعل أحد أهم الزوايا المشرقة للهزيمة، هو أنها تذيقنا المر فنستسيغ ما بعده

من حلو الفوز ولذة الانتصار، وفوق هذا تضعنا أمام حقيقة هامة وهي أن كل شيء في مضمار الحرب يمكن حدوثه، ويجب توقعه..

هناك قاعدة خطيرة تزحف وتوطن لنفسها في أذهان البعض رويداً رويداً وتكبر وتصبح أشبه بالحقيقة تسمى «يحدث للآخرين فقط».

الآخرون هم الذين يموتون، هم الذين يُفجعون، هم الذين يسقطون ويفشلون، أما أنا فبمنأى عن تذوق هذه الثمرة، أو المرور بتلك التجربة..

أنا فقط أشاهد، أتابع، أراقب، أستمتع، أمصمص شفتي من بعيد..

ونتيجة إيمان البعض بهذا المبدأ تكون الهزيمة قاسية جداً.. وخطيرة جداً..

ذلك أن الصدمة والذهول وعدم القدرة على لملمة شتات النفس، وإعادة الذهن إلى صوابه - كل ذلك يكون ملازمًا له، ينظر كالحالم إلى نفسه وقد صار في الموقف الذي لم يكن أبداً يتصوره أو يتخيله، والأخطر.. لم يتهيأ نفسياً لمواجهته..

ويطير الذهن.. ويُفجع الفؤاد..

لقد رأيت من تحطم عند وفاة عزيز عليه، بالرغم من كبر سن المتوفى وكهولته.

السبب أنه لم يتصور أبداً أن كأس الموت تدور حتى على من يحبهم، فعاش يجتر أحزانه لسنوات، غير قادر على أن يخرج من حالة الحزن أبداً..

ورأيت من انكسر عند خسارة تجارته، وذلك أن الأرباح المتتابعة أنسته أن الخسارة واردة، وأن التجارة ـ كما علمنا أجدادنا ـ مكسب وخسارة..

ورأيت من أظلمت الدنيا في نفسه، وزهد الحياة وساكنيها، لمجرد أن صديقاً عزيزاً عليه، أو حبيباً مقرباً إليه، قد خان عهد الصداقة، أو مزق مرسوم المودة..

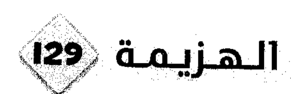
ورأيت من نكث على عقبيه لأن من وثق بهم لم يكونوا على قدر الثقة التي وضعها فيهم، فراح ينتقد كل الناس، ويوزع لعناته على الجميع..

والحقيقة أن جزءًا كبيرا من تلك الأزمة يكمن في طول أمد السلامة، مع نقصان الحكمة والنضج.

من هنا يمكننا القول بأن أحد فوائد الهزيمة أنها تزيد من مستوى نضج المرء وحكمته، تجعله يفتح ذهنه، و يهيئ نفسه؛ لتقبل ما تأتي به الأيام، أو يخفيه القدر.

إنها تلهمه الفهم البصير، فمتى توقع المرء الخير والشر، الربح والخسارة النصر والهزيمة، فقد استعد نفسياً لقبولهما على السواء؛ فلا يخرج عن الاعتدال في فرحه وحزنة..

ضف فوق هذا شيئاً آخر وهو جزاء المهزوم الصابر، أوليست الهزيمة ابتلاء، إن قهر الرجال بلية البلايا، وتشملها بشارة الله في محكم تنزيله :



﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾

سورة البقرة (155-156)

وها هو نبينا ﷺ، ينبئنا بقيمة هامة للأحزان، والبلايا، والانكسارت، وذلك عندما سأله (أبو بكر) - رضي الله عنه -، عن قول الله تعالى:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٢٣﴾

سورة النساء 123

قائلا : «كل سوء عملناه نجزى به؟!، فكيف الخلاص إذن يا رسول الله؟» فقال النبي ﷺ : «غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تحزن؟ ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ فهذا ما تجزون به، وإن ذاك بذاك!!».

خلاصة القول.. الهزائم واردة، والأحزان متوقعة، والشدائد والتحديات من طبيعة الحياة، ننجح في قهرها مرة، ونفشل مرة أو مرات..

وإن كان التفاؤل والأمل سلاحين هامين في مواجهة المصاعب والتحديات فمن الخطر الشديد الأمل المطلق، والتفاؤل اللانهائي.. ومن ظن أن صفاء الحياة وخلوصها من الشوائب والمنغصات أصل ثابت تستقيم عليه الأمور وأن الهزائم والصدمات هي الاستثناء الشاذ، حق عليه أن يجزع لغير ما يتوقع ويتخبط بغير هدى كالمجذوب..

كالحالم أطالع الجثث تتساقط من حولي..

ألملم شتات نفسي وأنا أرقب وقع أقدامي كي لا تطأ دماء إخواني التي سالت أنهارا..

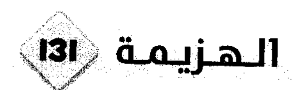
النيران ترتفع عالياً مخلفة دخانها الذي اختلط بدخان القنابل المسيلة للدموع، لا شيء هنا يمكن أن يطفئ حريق قلوبنا إلا برد الطمأنينة بموعود الله لشهدائه..

جميعنا أمام عين القناصة سواء.. الله يصطفي فيرتقي من نال المكرمة وأنامل الخسة تحصد الوزر..

مواكب الشهداء تكبر كل دقيقة، لا صوت يعلو فوق صوت التكبير..

جاء وقت الصلاة ولم يرتفع صوت الأذان.. طالعت عيني المئذنة التي شحب لونها من أثر الحريق.. وارتد بصري حسيراً باكياً.. إنه الكابوس الأسوأ في حياتي..

ويح قلبي!.. ألم يكن جديراً بهذه الدماء أن تسيل هناك، على أعتاب بيت المقدس، أو على حدود الوطن دفاعاً عن أرض، أو عرض..



خفف من وقع المصيبة على قلبي أن قتلانا حسبهم أنهم قد ماتوا دفاعاً عن حق يعتقدوه، وهم - إن شاء الله - شهداء، أبرار، صالحون..

يوم بعد يوم يزداد الظلم شراسة.. يبدو الطغيان كوحش كاسر لا يزيده طغيانه إلا شراهة، كل شيء في ازدياد مخيف..

الدماء تزداد.. الظلم يزداد.. الخوف يزداد..

والخيانة والخسة أيضاً يزدادان..

وفي لحظة يزور السؤال المخيف قلبي..

سؤال عن «الدم المهدور»..!

عن جدوى كل ما نضحي به.. عن الشباب في عمر الزهور يتساقطون، عن فتيات تُحصد أرواحهن فجأة.. عن شبح اليُتم وهو يخيم على أطفال لم يدركوا حجم المصيبة بعد..

وعند هذه النقطة.. أتذكر (الحسين) رضي الله عنه..

أراه ماثلاً في خاطري.. واقفاً وقد جمع أهل بيته وانطلق ليقول للظالم: «لا»..

خارجاً لملاقاة طاغية يعلم يقيناً أنه لن يرقب فيه إلاً ولا ذمة..

أرى (الحسين) واقفاً ينظر في عين (الحر بن يزيد) مبتسماً، مطمئناً، مصغياً له وهو يقول:

«ياحسين! أذكرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلت لتقاتلن، ولئن قوتلت لتهلكن.»

أكاد أسمع حفيد رسول الله ﷺ وهو ينهره قائلاً :

«أبالموت تخوفني؟!، والله لا أقول لك إلا كما قال أخو الأوس لابن عمر حينما خوفه إن هو نصر رسول الله ﷺ بأن الموت ملاقيه :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقّاً وجاهد مسلماً

وواسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مثبوراً وخالف مجرما

فإن عشت لم أندم وإن متّ لم ألم كفى بك موتاً أن تذلّ وترغما

تلك طبائع الرجال، أو قل تلك خصائص الشهداء.. لا تجتمع في صدر الواحد منهم أبداً رغبة في عيش مغموس في الذل والهوان..

بيد أن عبقرية الوصف حصلها الأديب (عباس محمود العقاد) حينما أجاب على نفس السؤال الذي راودني في كتابه العظيم «الحسين أبو الشهداء»، حينما تحدث عن جدوى ما فعله (الحسين)، عن ذلك «الدم المهدور» في حربٍ تبدو بشائر النصر فيها بعيدة، وطغيان الظالم وجنونه أقرب، حيث قال ـ تحت عنوان ذي مغذى عظيم «مصرع وانتصار!» ـ :

«إننا إذ ننظر لنتائج ما حدث نظرة واسعة نرى أنها أنجح للقضية من (مبايعة يزيد)، لقد بلغ منه رغم انتصاره عليه مالم يكن ليبلغه من انتصاره هو

في كربلاء!.»، ثم يخوض (العقاد) في عُمق الأمر صارخاً:

«لقد طلب الحسين الخلافة وفق الشروط التي يرضاها، ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ومهما تتطلب الوسيلة..

وهنا غلطة الشهداء..

بل قل: هنا صواب الشهداء..

فمن هو الشهيد إن لم يكن هو الرجل الذي يُصاب ويعلم أنه يُصاب لأن الواقع يخذله ولا يجري معه إلى مرماه!.

منذ القدم، أخطأ الشهداء هذا الخطأ، ولو أصابوا فيه لما كانوا شهداء، ولما شرفت الدنيا بفضيلة الشهادة..»

عبقري أنت يا عقاد عندما تتحدث عن العظماء، عبقري عندما تقف على كلمة السر في «أعجوبة الشهادة»، حينما تدرك أن الشهداء ارتكبوا الخطأ - أو الصواب - الذي لا يرتكبه سواهم، وهو أنهم لا يعرفون الحلول المائعة، والموائمات المشبوهة.. ولولا هذا الصواب الذي يراه الناس «خطأ» لما شرفت الدنيا بأبناء لها شهداء.

ويقف كذلك المستشرق الألماني (ماربين) في كتابة «السياسة الاسلامية» وقفة إجلال لموقف الحسين - رضي الله عنه - فيقول:

«إن حركة الحسين في خروجه على يزيد إنما كانت عزمة قلب كبير عز عليه

الإذعان، وعز عليه النصر العاجل، لقد أحيا بخروجه هو وأهله قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة.»

هنا يستقيم ميزان الوعي، ويغيب معنى «الهزيمة» المعهود عن أذهاننا.

إن الدم المهدور في معارك الحق، المسفوح على جنبات العزة ليس بهزيمة كما أن الأجساد المختبئة خلف أثوابها الحديدية ليست منتصرة، وإن عادت لقواعدها ـ حسب زعمها ـ غانمة منتصرة.

ثم يصف (العقاد) موقف كربلاء والدماء الزكية الذي سالت هناك وصفاً رائعاً، يعري بألفاظه جسد الذل المنتشي بكثرته فيقول:

«كان هناك معسكران أحدهما صغير يلح عليه العطش والضيق، لكنه كان مطمئناً إلى حقه يلقى الموت في سبيله ويزيده العطش والضيق طمأنينة إلى هذا المصير..

والمعسكر الآخر كان أكبر المعسكرين، لكنه كان «يخون» نفسه في ضمير كل فرد من أفراده، وتتملكه الحيرة بين ندم وخوف وتبكيت، ومغالطة، واضطراب يحز في الأعصاب ويقذف بالمرء إلى الخلاص، كيفما كان الخلاص..!»

انتهى كلام (العقاد)، وبدوري أنسحب من كربلاء آل محمد ﷺ، إلى كربلاء أتباع محمد ﷺ..

وتالله ما أعانني على استيعاب الأولى إلا معايشتي لأحداث الثانية..

أعود وقد حملت معي الإجابة الشافية على السؤال المُربك المُحير..

إن معايير النصر والهزيمة لا تُقاس بما ناله طرف من الآخر، ولا بقدرة هذا على قتل ذاك، ذلك أن المعارك عندما تدور فإنها تدور ابتداء بين ما يحمله كل طرفٍ من ميراث الخير أو الشر، وصلابة كل طرف في تأكيد وحماية التراث الذي يحمله وينتمي له.

معيار النصر هو نصرة المبدأ.. مهما أهدرنا في نصرته من دماء، فدماؤنا حينها هي الثمن الذي لا تستقيم كفة الحق إلا به..

كما أن معيار الهزيمة هو خيانة المبدأ، مهما حققنا من مكاسب أو نلنا من أعطيات..

وفي قصة «فتى الأخدود» الذي قُتل هو وأتباعه سلوى لقلوب أنهكتها صدمات الطغاة، يقول ربنا - جل اسمه - في سورة البروج :

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾

ثم عقب جل اسمه بقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾



الفوز الكبير..!.

لقد قُتل حملة لواء الحق حرقاً، ثم يأتي القرآن ليفاجئنا أن هذه النهاية التي قد نراها جميعنا (هزيمة مدوية)؛ كانت فوزاً كبيراً..

ليس هذا فحسب.. طَالع معي حينما يتحدث ربنا ـ جل شأنه ـ في سورة المائدة عن رجل نال مأربه.. قتل منافسه وفاز بالغنيمة:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠﴾

أصبح من الخاسرين.. كيف هذا؟؟!

لقد فاز، وانتصر، ونال مراده..

لكنه من الخاسرين..

وعلى هذا تجري موازين الله والحق..

فاز أصحاب الأخدود وخسر الملك الظالم..

فاز هابيل وخسر قابيل..

فاز الحسين وخسر يزيد..



فاز الشهيد ـ كل شهيد ـ وخسر من رفع السيف، أو أطلق الزناد..

فاز الحق لأنه قد روي من.. دم مهدور..







بعض السلوى

نحن جيل الصدمة..!

هذا الجيل الذي ولد ابتداء من منتصف سبعينات القرن الماضي وحتى تسعيناته لهو جيل لا يمكن إلا أن نسمه بهذا الاسم.. «جيل الصدمة».

الجيل الذي ورث ميراثاً ثقيلاً مؤلماً، فلا هو أضاع فلسطين، ولا هو الذي نبت في عصره شيطان «إسرائيل»، ولا هو الذي أخّر قاطرة العرب والمسلمين حتى صارت في آخر السباق.. أو ربما خارجه..

نحن جيل تسلم ميراثاً قبيحاً مهترأً ممن سبقونا.. ثم طُلب منه أن يفعل المستحيل..!

ويشاء ربك أن يخرج هذا الجيل من قمقم الأنانية والذاتية التي غرق فيها كثير من الآباء والأجداد، هبط إلى ميدان الحياة، وأنشأ ميدان الثورة، دفع من نور عينيه، ومن طهر دمه، بل ومن روحه الوثابة ثمناً ليس بالقليل من أجل أن يصحح أخطاء من سبقوه..



لكنه نال صدمة أخرى.. أشد.

لقد تنكر له الجميع.. وقف وحده في وجه العاصفة..

دمه رخيص.. روحه رخيصة.. سمعته رخيصة.. شرفه رخيص..

رخيص على شاشات التلفاز.. وعلى صفحات الجرائد.. وفي أعمدة النخبة والكُتاب..

الكل ينال منه.. وبهدوء يثير العجب..

ينظر إلى الكاتب الكبير الذي كان يشتري كتبه، ويحضر ندواته، ويحرص على أن يلتقط معه الصور التذكارية، فيراه قد طعنه هو الآخر.. غرس قلمه في قلبه إلى آخره..

ينظر إلى شيخه المعمم، ذلك الرجل الذي طالما حدثه عن بطولات (العز بن عبد السلام)، و(أحمد بن حنبل)، و(سعيد بن الجبير)، فيراه وقد أدار له ظهره متمتماً بأن الحاكم المتغلب يجب طاعته.

حتى النخبة من العلماء، المفكرين، الفلاسفة، الأدباء.. لم يعد يعرف منهم أحداً..

كلهم أذعنوا للظلم.. كلهم يكتبون بمداد واحد، ويتحدثون بلسان واحد، ويؤمنون بمنطق واحد..

كلهم كانوا يكذبون عليه..



صدمة...

صدمة كان من الممكن أن تنال من جيلنا، وتُسلمه إلى الخنوع و الارتكان ووضع السلاح، وترك المقاومة.

والأخطر أنها كانت من الممكن أن تسلمه إلى التشكك في سلامة موقفه والكفر بمبادئه وقيمه وأحلامه النقية الطاهرة..

كان يمكن أن يُصدق ذلك الفيلم العبثي الذي يدار حوله.. فيصدق أن هذا الكاتب فعلاً شريف، وهذا العالم حقاً جليل، وتلك النخبة هي التي تعرف ما لا نعرف، وتملك أدوات الحل، وطرق الخلاص..

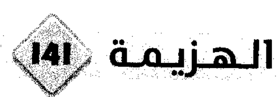
لولا شيء واحد فقط..

أمر هام.. ثغرة في خطة الشر..

أن هذا الجيل ينتمي إلى تراث عظيم، إلى دين يؤمن بالثورة، دين قام على الثورة..

> بدءًا من الثورة على المعتقد الفاسد، والطريق الفاسد، والأماني الفاسدة.. إلى الثورة على تبعية المرء لغير خالقه، ورضائه بالهوان والظلم وطأطأة الرأس والتسليم المطلق..

نحن جيل إن عز بيننا شريف، أرسلنا الطرف ليستحضر أشرافنا



الأوائل، ونرسل الخاطر ليأتينا بما نقوي به الروح، والفكر، ونجدد به الإيمان والعزيمة.

نأتي بعظمائنا لتدور معركة المقارنة.. وتبدأ مواسم الفرز..

علماء مجاهدون!

وقد تسألني : لماذا علامة التعجب..!

وأجيبك : لأننا في زمن عز فيه هذا الصنف من البشر.. حتى ظننا أنهم لم يوجدوا.

عندنا من يُغلق بابه حال الفتنة.. يكتفي بلعن من أيقظها، فكان لزاماً أن نستحضر من قدواتنا علماء مجاهدين، كانوا يستقبلون الفتنة بأجسادهم كي يطفئوها.. وبأرواحهم كي يفضحوها.. وبكلماتهم ومناظراتهم وفتاويهم كي ينسفوها نسفا.. فيبدو للناس وجه الحقيقة الناصع..

ومن هؤلاء ننادي على (سعيد بن المسيب).. التابعي الجليل الذي عاش في المدينة وسمع من صحابتها الأجلاء، جلس إلى (علي بن أبي طالب) و(سعد بن أبي وقاص)، و(ابن عمر)، و(أبي الدرداء)، و(صهيب)، و(عائشة) و(أسماء) وغيرهم الكثير رضوان الله عليهم أجمعين، ولقد صحب (أبوهريرة) شيخ المحدثين، وتزوج ابنته.. وكان (عبدالله بن عمر) إذا سئل عن أمر أشكله قال : «سلوا سعيداً فقد جالس الصالحين».

مما يعني أن الرجل كان له باع في الفقه، والحديث، وحظ من آداب النبوة وتعاليمها .

كان (سعيد بن المسيب) ثقة بين الناس، مزيج بين الشيخ العالم، والصوفي الأريب، وله من الحزم والصرامة في الحق ما يجعل الناس تهابه وتجله إجلالها للحق وحملته.

وحدث أن (عبدالملك بن مروان) رأى التفاف الناس حوله فأراد أن يكسب وده ليكون له بين الناس حسن الذكر، فقطع له معاشاً من بيت المال فرفضه سعيد ورضي بمهنته البسيطة وهي «تجارة الزيوت»، فحاول أن يقربه من مجلسه فرفض الشيخ الجليل لما يعرفه عن جور بني أمية وأعمال طغاتهم في الأقاليم، فأراد عبدالملك أن يخطب ابنته إلى ولي عرشه الوليد فرفض شيخنا وعجّل بتزوجيها لأحد طلابه الفقراء!.

وهذا والله من مراتب الجهاد..

ابن المسيب يزدري مباهج الحياة، يرفض أن تكون ابنته «السيدة الأولى» ويرفض معها أن يكون مطية للظالم، وأن يخدع بقربه من الخليفة الشعب المرهق المسكين.. يريد أن تبقى كلمته حرة، وموقفة منزه عن الأهواء، وبضاعته أمام الله تعالى لا يطالها دخن.

كانت الحرب بين الأمويين والزبيريين على أشدها، وبالرغم من كونه لم يؤيد أحد الطرفين إلا أنه في نفس الوقت لم يرضى بأن يتخذ جانب الحيطة والأمان

والدعة، لذا فعندما أرسل له عامل (عبدالملك بن مروان) يأمره بالبيعة للوليد رفض الرجل، هددوه فلم يتراجع، فما كان منهم إلا أن خيروه بين ثلاث :

إما أن يصمت حينما يقرأ الوالي كتاب البيعة على الناس فلا يقول نعم أو لا، أو أن يجلس في بيته إلى أن تنتهي مراسم أخذ البيعة، أو أن يسافر خلال هذه الفترة.

فهل رضي الشيخ الجليل، هل آثر أي خيار وفي بعضها متسع لمن يبحث عن ثغرة تقيه ويل الكلام، وتبعات المواقف؟ لا والله..

والسبب.. أنه رفض أن يسكن، أو يتحرك، أو يسافر خوفاً من أحد.. أو إرضاء لأحد.

رأى العالم الجليل أن الباطل يحتاج لفم مُطبق كما يحتاج لفم مهلل، يحتاج لموقف سلبي كما يحتاج لموقف مؤيد، رأى أن الجريرة ليست فقط في تأييد السلطان الظالم، بل و في الصمت على ظلمه أيضاً.. فجاهر برفضه وهو يعلم مغبة ذلك.. وقد كان.

جردوه من ثيابه وضربوه بالسياط خمسين سوطاً، وفوق هذا طافوا به في المدينة وهم يرددون : «هذا يوم الخزي»، فكان يرد عليهم ـ رحمه الله ـ :

«بل فررنا من الخزي.. الخزي يوم القيامة.. الخزي يوم القيامة».

وانتهت المحنة.. وعاد الرجل إلى بيته مرفوع الرأس، راضياً بأن يدفع



ضريبة اتباع الحق من بعد معرفته، عاد وظهره دامٍ، وجسمه منهك، عاد ضارباً المثل لطبيعة العالم وأسلوبه وجرأته.

هذا هو شيخي وإمامي، لا يرضى بغلق الباب حال الفتنة، ولا يلجأ للتورية لينجو بنفسه ويترك الناس ليتدبروا أمرهم، ولا يدلف من باب الحيطة مترساً خلف تنظير وأحكام يتلاعب بها كلاعب السيرك الماهر.. بل يضرب بالحق على الباطل، ويجعل من نفسه الفداء لكل من وثق به وجلس يوماً بين يديه.

وليس (سعيد بن المسيب) أمثولة فريدة، فتاريخنا زاخر بعلماء مجاهدين ليس لهم عد ولا إحصاء، فهذا (سعيد بن جبير) يثور على (الحجاج)، يحمل علمه في صدره، ويصرخ هاتفاً بالحق الذي يعتقده، لم يعتزل الناس في مسجده، بل جاهر بالحق صريحاً، وقدم النصيحة ابتداء، وفي الأخير ثار مع (عبد الرحمن بن الأشعث) و(عامر الشعبي) على (الحجاج) ورفعوا في وجهه السلاح، وانتصر بغي (الحجاج)، وقامت محاكمة هزلية لـ (سعيد بن جبير) خلدها التاريخ حيث أفحم فيها عالمنا الجليل الطاغية قبل أن يحكم عليه بالقتل.

وابن جبير لم يكن طالب فتنة، ولا مُشعل حرب، ولا شيخاً من شيوخ السلطان الذين يخفضون رؤوسهم في حضرته، بل كان عالما جليلاً قال عنه (أحمد بن حنبل) : «لقد قتل الحجاج ابن الجبير وما أحد على الأرض إلا مفتقر لعلمه».

وقال عنه (الحسن البصري): «قاتل الله الحجاج، فوالله لو أن من بين المشرق

والمغرب اشتركوا في دم سعيد بن جبير لكبهم الله على وجوههم في النار».

واسمحوا لي أن أنادي على فقيهنا وشيخنا (الأوزاعي) إمام أهل الشام بل تعالوا لنشاهده وقد أحضره (عبدالله بن علي) عم (أبي العباس السفاح) أول خلفاء بني العباس، كي ينتزع منه اعترافاً بمشروعية «الانقلاب» العباسي على دولة بني أمية، طالعوه ملياً وهو يرفض أن يجيب طلبهم، اطرقوا وأنتم تستمعون إليه وهو يعنف الطاغية - وهو من أشد ولاة بني العباس دموية - على استحلاله لدماء بني أمية بعدما أعطاهم الأمان، وها هو الطاغية يطرده من مجلسه، وهو يبيت له الشر، لولا أن قضاء الله إليه كان أقرب.

ويطيب الكلام بذكر إمامنا الجليل (أبو حنيفة النعمان)، الذي تعلمنا من فقهه الكثير ولم نتعلم من جهاده شيئًا.

أراد الطاغية (يزيد بن هبيرة) والي العراق أن يوليه القضاء مع فريق من رجال الفقه والتشريع، لكن الإمام كان يدرك جيداً أن وجوده قريباً من الحكم يعطي مشروعية للظلم وتوطيداً لدولة الطغيان، فرفض العرض المقدم إليه فاستعظم الوالي ذلك وأمر بسجنه أسبوعين عله يعود إلى رشده، فلم يزده ذلك إلا ثباتاً على الحق..

وذات يوم حدث موقف غريب مع إمامنا، كان له في أيامنا هذه تشابه..!.

فقد دعاه (أبو جعفر المنصور) هو وثلة من علماء الشام ليأخذ رأيهم في أهل

الموصل، حين اشترط عليهم أن يستحل دماءهم إذا انتقدوا حكمه، لكنهم خالفوا الشرط فهبوا ثائرين.

قال (أبو جعفر) مخاطباً العلماء وبينهم (أبو حنيفة) : «هذا وقد قال رسول الله ﷺ : المؤمنون عند شروطهم، وقد اشترط أهل الموصل ألا يخرجوا علي وإلا يباح لي قتلهم ودماؤهم حلال».

سكت الناس وتكلم أبوحنيفة.. نعم، تكلم (أبو حنيفة)، فليس للعالم أن يصمت فصمته عن إنكار الباطل إقرار به.

تكلم قائلا : «اشترطوا لك ما لا يملكون، واشترطت عليهم ما ليس لك لأن دم المسلم لا يحل».

ثارت ثائرة (أبوجعفر المنصور)، وأخرج العلماء من عنده بعدما قال لعالمنا الجليل: «لاتفت على إمامك بما هو شين .. واذهب إلى بلادك».

ثم أرسل إليه يعرض عليه القضاء وقد علم رفضه له سابقاً، وكما هو متوقع كان الرفض هو الجواب في المرة الثانية أيضاً، وحينها أمر الخليفة أن تنهال السياط على جسد الشيخ الواهن حتى اكتملت مائة وثلاثين سوطاً، إلى أن سقط الرجل من شدة الألم، فذهبوا به إلى بيته، ولم يطل مكثه حتى مات متأثراً بجراحه.. رحمه الله.

وهذا الإمام (مالك بن أنس) يقف موقفاً مشابها أمام (أبوجعفر المنصور) فيأمر الخليفة عامله على المدينة فجرده من ثيابه دون ما يستر العورة، ثم طرحه

على الأرض بعدما أوثق رجليه ويديه، وانهالت عليه السياط حتى بلغت الثمانين..

وهذا (أحمد بن حنبل) جلده (المعتصم) حتى أغمى عليه، وأمر زبانيته فطرحوه أرضاً، فما استكان ولا لان عن رأيه الذي يعتقد فيه الحق.

وغير هؤلاء كثر، كـ(المنذر بن سعيد)، و(العز بن عبدالسلام)، و(محيي الدين النووي)، و(ابن دقيق العيد)، و(ابن تيمية)، و(عبدالرحمن الجبرتي) و(جمال الدين الأفغاني)، و(عبد المجيد سليم)..

علماء مجاهدون، في ساحة الفكر، وساحة السياسة، وساحة الدعوة..

لم يتحدث أحد منهم عن الصمت الواجب، ولا نادي بالسلامة خوفا من حاكم متغلب، ولا تحجج بأن الدعوة تستحق جهده بدلاً من السياسة وألاعيبها ..

لقد تعلموا في مدرسة النبي محمد ﷺ أن أعظم الجهاد كلمة حق في وجه سلطان جائر .

وقد يلوم علي لائم سكوتي عن علماء مجاهدين من زمننا الحاضر أو ماضينا القريب، لكنني شئت وأحببت أن أتلوا على الأسماع أنباء «السلف الصالح»..

السلف الذين ما نقلوا لنا تعاليم الدين في الأسفار، إلا بعدما نقلوا لنا آيات نصرة الدين على الأجساد، وما كتبوا مواقف الحق بالحبر، إلا بعدما كتبوها أولا.. بالدم.

فيا أصدقاء المحنة، في التاريخ ثمة سلوى..

ويا جيل الصدمة، في سلفنا الصالح خير مثال وأروع قدوة..

لا تلوموا أنفسكم حين تجدون طريق الحق وعر.. وملامح الهزيمة قريبة.. وسطوة الطغيان غالبة..

فالتاريخ يؤكد أن هكذا الحق دائمًا، وعرة دروبه، قليلون أتباعه..

لكنه - والحمد لله - فاضح، كاشف، مُبين..

فمرآة الحق لا تتجمل، ولا تعكس إلا صورة الحق المبين..

والحمد لله رب العالمين.



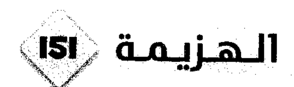
يا بني، الكل في رحلتنا تلك مجروح وإن بدا لك غير ما ترى.. الناس تتفاضل وتختلف في إخفاء وجعها ووأده، وليس بيننا من سلم من الجراح، أو حُصن من الكدر..

وكل جرح يا بني به وجع، وكل مصيبة يعقبها ألم.. بيد أنه شتان بين جراحك في سبيل الحق، ومثيلتها في طريق الباطل، الأولى توجع لكنها تُحتمل إن سلواك وقتئذ تكون كبيرة، وطمأنينة روحك توفر لك الصبر الذي يخفف عنك ما تجد وتلاقي، أما الثانية - أعاذك الله - فلا احتمال لها.

جراحك وأنت تدافع عن الحق هو تذكير متكرر - مع ما به من وجع وألم - على أنك الإبن البار لحملة الحق طوال التاريخ، أنت من نسل الأنبياء، وسليل المصلحين..

وتلك أربع لا تنس منها شيئاً مهما طاش سهم تركيزك..

أما الأولى، لا تُعن أعدائك عليك، لا تُعطهم من صفاء روحك بالتفكير في شذوذ تصرفاتهم، ولا تُقرضهم من نبل موقفك بالنزول معهم في مستنقع الشر الذي ألِفوه، ولا تُرح لهم بالاً بأن تريهم انشغال ذهنك بالتفكير فيهم..



لتكن سهام نظرك مشدودة نحو هدفك الأسمى، وغايتك العظمى.

والثانية، لا تُعن نفسك عليك، تلك التي تخوفك، وتبث اليأس فيك، لا تدعها تُحكم سيطرتها عليك، ستخاطبك في لهجة حنون أن رفقاً بنفسك ولتهنأ قليلا، لا تُصدقها أبداً، كن أنت قائدها، ومُسيرها.

واعلم أن نفوسنا خوانة، غادرة، وكثير من الناس حولنا ما أقعدهم عن نصرة الحق إلا نفوسهم التي خوفتهم من المخاطرة، ومنتهم بالأمان والراحة والنعيم.

والثالثة يا بني، أن الله غير غائب - حاشاه - إنه يُمهل ليتوب البعض، ويُمهل ليستدرج البعض، ويُمهل ليزيد الظالم في ظلمه حتى إذا ما أخذه جعله عبرةً ومثالا، لا يداخلنك اليأس لتأخر النصر، ولا تستبطئ كلمة الله، إن له في الكون تدبير، وله جنود لا نعلمها، وحكمة لا ترتقي لفهمها أذهان البسطاء كن واثقاً فيه، متكلاً عليه، مؤمناً به .

أما الرابعة، فالابتلاء ليس عقاباً، كما أن النصر ليس دليلاً على صحة الأمور ومن أراد الحق فأخطأه لا يتساوى مع من أراد الباطل فأصابه، ومرد كل أمر إلى نية المرء ودوافعه، فأصلح نيتك، وتقبل بعد ذلك قضاء الله وقدره، حلوه ومره.



الخلاصة ..

- تستطيع أن ترتقي فوق عثراتك إذا أدركت أن أي هزيمة تطالك هي موقف يجب أن تواجهه وتتغلب عليه وليس حالة تستلم لها، وتذعن لما تصيبك به من إحباط.
- اعترف بالهزيمة ولكن لا تخضع لها، لن تستطيع التغلب على واقع لا تراه وترفض الاعتراف به، لقد سمى القرآن معركة أحد بالمصيبة ولم يخفف أو يُجمل أو يُلطف الواقع.
- بقائك حيًا، يعني أن ثمة فرصة لاستعادة ما خسرته، مهما كان التحدي قوياً.
- الخوف عدوك الأول، واجهه، لا تتركه ينمو في المجهول.
- تستطيع أن تنتفض من الرماد كالعنقاء إذا ما استطعت التكيف مع الأوضاع الجديدة مهما كنت رافضاً لها، كما يمكنك أن تبني بدأب وروية صرح مجدك المحطم إذا ما تفاعلت بمرونة مع الأوضاع السيئة القائمة.

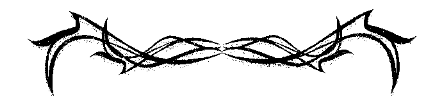
- لا شيء يقتلنا كسيف الإحباط، وأسوأ الهزائم هي تلك التي تصيبنا دون أن نرفع فيها سيفاً.

- للهزيمة وجه مشرق! فهي التي توقف ترهل الذهن، وتدفعه للتحفز والنشاط والتجديد، تذوقك للهزيمة يمنعك من وهم النصر الدائم وفخ السيء الذي «يحدث للآخرين فقط».

- ضع المواقف، والأشخاص في حجمهم الطبيعي، التهويل يصيبك بالذعر، انظر في العين مباشرة، لا تسمح لخيالك أن يُضخم من وقائع الأحدث، أو قدرات الأشخاص.

- في مواجهة خصمك قوتك ليست فيما تملكه، بل في قدرتك على الاستغلال الأمثل لممتلكاتك ومواهبك، وإبداعك في استثمارها وتوظيفها.

- حسناً، صار من اللازم أن تدرك هذا جيداً «النصر في الحياة لا يناله الذي يضرب الضربات الأكثر، بل الذي يتلقاها.. دون أن ينكسر».



أهم المراجع

علماء في وجه الطغيان	د. محمد رجب بيومي
الحسين أبو الشهداء	عباس محمود العقاد
تأملات في الإنسان	رجاء النقاش
الإنسان يبحث عن معنى	فيكتور فراكل
حياة حقيقية	د.فيليب ماكجرو
العادات السبع للناس الأكثر فعالية	ستفن كوفي
الفشل البناء	جون سي ماكسيول



كريم الشاذلي

كاتب وباحث ومحاضر في مجال العلوم الإنسانية وتطوير الشخصية، وهو إعلامي ومقدم برامج إذاعية وتلفزيونية.

حصل على بكالوريوس إعلام من جامعة القاهرة، وكتب 17 كتاب في مجال الأسرة والتطوير وفهم الذات والتعامل مع الحياة، بيع منها مجتمعة أكثر من مليون نسخة، وتُرجمت إلى أربع لغات.

حاضر في جميع جامعات مصر، وكثير من جامعات الوطن العربي، كما أنه تحدث وخاطب أكثر من 100 ألف شخص في محاضراته وندواته المختلفة.

يؤمن بأن صعوبات الحياة شيء لا مهرب منه، ويعمد إلى توجيه الذهن إلى حتمية التحدي، والنفور من الإنكسار والفشل.

لمتابعة مقالاته وحلقاته الإذاعية والتلفزيونية على الموقع الاليكتروني، وموقع التواصل الاجتماعي فيس بوك.


www.karimalshazley.com


www.facebook.com/karem.alshazley

الحكمة طائــر..
والقلم صيــاد

ملحق التعقيبات والتأملات الشخصية:



الحكمة طائر..
والقلم صياد

ملحق التعقيبات والتأملات الشخصية:

الهزيمة

هي أن توقفنا الهزيمة.

إن أكثر هزائمنا خزيا ..
هي تلك التي ننهزم فيها دون أن نرفع سلاحا

إن محاولاتنا
من أجل إحراز النصر
هي في حد ذاتها نصر
وإن لم يتحقق

إن الهزائم التي نمر بها
هي المدرسة التي يتخرج منها
النبهاء والرواد والراسخون

إياك أن تنكسر ..
أو أن تعود أدراجك.

كريم الشاذلي

ISBN [illegible]